سقوط المرأة في أدب نجيب محفوظ

د. نرمين الحوطي

المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب
الكويت

إهـــــداء ٢٠٠٩

المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب
الكويـت

سقوط المرأة
في
أدب نجيب محفوظ

د. نرمين الحوطي

الطبعة الأولى
٢٠٠٦م

الإهداء

إلى أستاذتي الأستاذة الدكتورة رشا الحمود الجابر الصباح.. إلى من وقفت بجانبي لكي أصل إلى ما أنا فيه.. إلى من وضعتها في مخيلتي وطموحي لتكون رمزاً مشرفاً يطمح الإنسان للوصول إليه..

إلى الأستاذة الدكتورة رشا الحمود الجابر الصباح.. أتقدم بالشكر والعرفان لتقديمك إلي من خلال كتاب سقوط المرأة في أدب نجيب محفوظ.

د. حسين الحربي

المقدمة

إذا اعتبرنا أن الأدب وسيلة لتصوير الواقع في صوره الكثيرة بداية بما قبل الكلاسيكية ومروراً بالمذاهب المختلفة على مر التاريخ الطويل للبشرية، فإن المرأة كانت وما تزال تشكل حجر الزاوية في الصراع الدائم بين الازدواجية الخالدة بين «الخير والشر».

والمرأة والهاوية.. هي القضية التي نسجت الكاتبة نرمين الحوطي خيوطها من زاوية فنية وقد اتخذت من أدب الكاتب العالمي نجيب محفوظ أنماطها بعد أن اختارت من ذلك الأدب ثلاث روايات تشابهت فيهن صورة المرأة إلى حد كبير لكي تشكل مثلث السقوط بطرق مختلفة ولكن النتيجة واحدة.

وأنا أرى في ذلك الاختيار أن الكاتبة جمعت بين الجرأة والمخاطرة حينما اقتربت من هذه الفكرة التي تولدت من تلك الأعمال لكاتب ذي مكانة مرموقة في الوطن العربي بل تعداه إلى ما وراء البحار، حيث ترجمت أعماله إلى عدة لغات وأصبح يشكل في هذا العالم رائد أدب الواقعية في منطقة الشرق العربي.

وإذا كانت الكاتبة قد اختارت نجيب محفوظ كأحد رواد الرواية العربية عامة والمصرية خاصة، فإن الهدف من وراء هذا الاختيار كان الثراء الهائل لصدى تلك الأعمال الروائية والتي كانت تحظى بوجود عمالقة آخرين في هذا الميدان أمثال طه حسين والعقاد وتيمور وغيرهم، ولكن تنوع أدب نجيب محفوظ كان مشجعاً لانتقاء خيط رفيع من نسيج متكامل حقق داخله رؤى مختلفة لقضايا العصر متجاوزاً مساحة زمنية مستقبلية.

إن مكانة نجيب محفوظ في الأدب العربي تجاوزت كل الحدود المتعارف

عليها حيث لم يتقيد بشكل واحد أو بعدة أشكال، بل أثار في أعماله التي خرجت عن دائرة التجديد وتناولت منحنيات متشابكة لحياة المجتمع والصراعات القائمة بين مكوناته، كل ذلك أعطى لنجيب محفوظ مكانة لا يختلف عليها أحد.

ومن تلك المكانة والتأثر بمعطياتها كانت البداية في تحقيق أمنية تناول نقطة من بحر أدب الكاتب لكي تقوم الكاتبة بتحليل مكوناتها عضوياً وموضوعياً للوقوف على نتائج يمكن استخلاصها من سياق الأحداث والمواقف.

أما عن اختيار الموضوع فإن العالم أجمع يعيش قصة السقوط للمرأة كنتيجة نهائية دون البحث عن الأسباب أو المتهم الحقيقي الذي أوصل المرأة إلى تلك الهاوية حتى دون حكم منطقياً يتحلى بقسط من العدالة الاجتماعية.

لقد وجدت الكاتبة في هذه القضية بداية جريئة أرادت أن تقتحمها بشيء من التحدث المشوب بالحذر ولها العذر في ذلك فالمادة التي أرادت أن تتناول جزئية منها هي أدب نجيب محفوظ الغني عن التعريف لمثقفي الوطن العربي بل والعالم أجمع، فهو الوحيد الذي شرف بجائزة نوبل في الأدب على مستوى الوطن العربي عن جدارة، ثم يكون الاختيار من بعض أعماله، بل هي ثلاثة على وجه التحديد «زقاق المدق، بداية ونهاية، ثم اللص والكلاب» ومن تلك الثلاثية يكون الاختيار للموضوع، ومن نقطة بعينها تواجدت في تلك الثلاثية يكون التركيز، وهي السقوط أو طريق الهاوية للمرأة.

لقد وجدت الكاتبة في هذه النقطة قضية يجب أن تثار حتى لا يكون الاتهام موجهاً لشخصية بعينها دون الدفاع عنها من قريب أو بعيد، فالواضح أمام العامة الحكم النهائي ولكن أسباب الاتهام وملابساته وظروفه ومناخه ومعطياته وغيرها كثير مجهول ويمكن أن يكون واحد منها هو المتهم الحقيقي والآخر مجني عليه، هذه النقطة أراد نجيب محفوظ أن يضمنها رواياته الثلاث ولكن في سياق حوارات كثيرة ومواقف متجددة وأحداثاً متلاحقة يمكن أن تختفي بينها هذه النقطة.

لذلك كان اختيار الموضوع عن عمد لتحقيق رؤية غير واضحة في سياق تلك

الأعمال وحتى يكون الحكم منطقياً نتيجة لدفاعات توصلت إليها الكاتبة من بين سطور تلك الأعمال بعيداً عن الذاتية التأثيرية.

أما عن القضية ذاتها فهي من القوة ما يجعل المهتم بالأدب والرواية أن يقف أمامها مشدوداً، قضية ليست محلية أو مكانية بل إنها تتعدى المكان والزمان وهي تعيش مع الإنسان ما بقي منذ البدايات البعيدة جداً وحتى الآن وما بعده، فهي قضية الخير والشر والتي تشكل الصراع الأبدي بين البشر، بذلك كانت قوة الطرح لهذه القضية كبيرة ومتشعبة حتى إنها تغري الكثيرين الذين يتوقفون عندها بالتفكير فيها جيداً وتحليلها تحت أي شكل.

ومن قوة الطرح هذه كانت البداية للاختيار وتجميع كل خيوط الشخصية الرئيسية التي هي محور الأحداث ومحركها وسطورها وحتى نهايتها، السقوط المأساوي، وأسبابه ومسبباته والجو العام الذي احتوى الأحداث والصراعات بين عالم البرجوازية الصغيرة والعالم الآخر بذلك التيار المتدفق المتغير دائماً في مواجهة التسلسل الطبقي المتحجر، إن ملحمة الحياة الخاصة عند نجيب محفوظ تتنفس بالدلالة العامة.

من هذا المعنى لفلسفة نجيب محفوظ في كل رواياته كان كافياً لأن يكون هدفاً ثرياً لاختيار ما يترسب في الفكر لكي تنتقي الكاتبة جزئية لتشكل منها مسيرة شخصية مع تتبع تحركاتها وعلاقاتها بالآخرين وتأثير كل منها على الآخر بالسلب أو الإيجاب حتى نهاية الرحلة التي توصل لطريق مسدود يشوبه الظلام بمعاني مختلفة.

لقد شكل أدب نجيب محفوظ لوحات تنطق بمكوناتها من خطوط وألوان ساخنة وباردة طبقاً للموقف وكانت المرأة في التكوين عاملاً مشتركاً، بل بارزاً يتحرك من خلاله الحدث وينتهي عنده، ولم تكن المسميات لتلك الشخصيات مصادفة، بل عن تأمل ودراسة وفلسفة تصل لدلالات تشكل مغزى عميقاً لمن يربط الشخصية والاسم بالأحداث والمواقف ثم قوة كل هذه المسميات بالمعنى العام لتلك الأسماء «حميدة في زقاق المدق ونفيسة في بداية ونهاية ثم نور في اللص والكلاب»

وهذه مسميات لها دلالة لفظية مصدرها لفظ الجلالة ومفردات تحمل قيماً أخلاقية نادرة، ومع ذلك يكون تيار الرذيلة أقوى تأثيراً، أما الأسباب فهي في طي الأحداث أهمها الظلم الاجتماعي الذي قهر الإرادة داخل النفس البشرية.

لقد وجدت الكاتبة مادة من الثراء ما جعلها تتمادى في تناول الحدث الواحد من أكثر من زاوية وتسهب في التحليل الذي كان يمكن أن يمتد لكثير من الاتجاهات ولكن في النهاية نجحت في تحديد الرؤية التي أرادت أن تصل إليها دون الدخول في منحنيات كانت متواجدة وهذا يحسب لها حيثما خططت جيداً للدخول في عالم مليء بالأحداث والفلسفات الفكرية والسياسية والاجتماعية في آن واحد، بل إن تلك المسميات كانت أحياناً تتداخل بشكل يصعب فيه تفكيكه، ولكن الكاتبة تمكنت من التحليل دون المساس بجوهر الفكر لكل شخصية، كان الهدف الأوحد، تتبع خطى المرأة التي هي الأساس.

لقد كان اختيار الكاتبة للخوض في هذا الموضوع درباً من المغامرة ولكنها قبلتها بشيء من الجرأة بعدما جمعت كل الخيوط وتفهمت الصورة جيداً وتوصلت لنتيجة أولية كانت دافعاً للاستمرار في المسيرة، شجعها أكثر على ذلك الهالة التي يعيشها داخلها الكاتب العالمي نجيب محفوظ، أرادت أن تكون البداية من القمة.

ومن الواضح أن المكان والزمان في أدب كاتبنا كان لهما أثر في فلسفته التي سيطرت عليه من خلال الواقعية الاشتراكية حتى أنه في كثير من أعماله كان يربط بين فرويد وكارل ماركس، فالأول يكتشف قوانين العالم الداخلي والآخر يكتشف قوانين العالم الخارجي، والمقارنة كانت بين الطبقتين وأغلبها من الفقراء، لذلك ركز نجيب محفوظ في أعماله على المكان الذي يخزن الكم الكبير من قوى الشعب المغلوبة على أمرها بقلة باقية مترفة لا يربط بينهما مسافة.

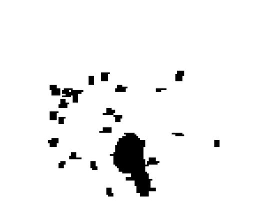
وإذا كان نجيب محفوظ قد اتخذ من ذلك المكان مسرحاً لتقديم أحداث يفضح من خلالها أنظمة سياسية فإن الزمان أيضاً كان عاملاً مشتركاً ومهماً لتوافر الأسباب التي أدت إلى خلق طبقة انقسمت دون رابط يصل بينهما، واحدة تقبع في القاع والأخرى قد استقرت في القمة، وقد عايش الكاتب كلاً منهما طبقاً للنشأة وتحصيل العلم.

إذن فروايات نجيب محفوظ التي ارتبطت بالزمن المعاصر آنذاك فترة الثلاثينات وما بعدها من القرن العشرين حيث عاصرها الكاتب وأخرج من واقعها تلك الأحداث سواء في ثلاثيته المشهورة «بين القصرين - السكرية ثم قصر الشوق» إلى ما بعدها من ثلاثية أخرى تعرضت لها الكاتبة في هذا العمل والتي أخرجت منها فلسفة الكاتب التي اختلفت فيما بين السطور مقارنة بالأماكن الشعبية التي شاهدت صراع تلك الأحداث، كل ذلك كان هدفاً داخل الكاتب حتى يصل المفهوم لشعب مقهور أغلبه من الطبقة الدنيا الشعبية ويمكن أن يكون أحد أسباب التغيير الثوري الذي مهد له البعض قبل عام ١٩٥٢م.

وقد تمكنت الكاتبة من خلال هذا العمل من إلقاء الضوء على أثر الكاتب في بيان صورة الحياة بأبعادها المختلفة وتحديد موقع الخلل الذي يؤدي إلى انتشار ظلم يصل في بعض الأحيان بالإنسان إلى الهاوية.

أ. د. رشا الحمود الجابر الصباح

وكيلة وزارة التعليم العالي





(١) زقاق المدق

ذلك المكان الذي اختاره الكاتب لكي يخرج منه مجموعة أحداث تشكل قضايا مجتمع متكامل بطبقاته المختلفة.. الطبقة الدنيا وما أكثرها في هذا الزقاق بدءاً من "جعدة" الزوج المغلوب على أمره من زوجته وعم كامل بائع البسبوسة وعباس الحلو الحلاق وسنقر النادل وشاعر الربابة الذي اندثر فنه بالاختراع الجديد الذي يطلقون عليه اسم الراديو.. الخ.

ثم يحوي الزقاق بين جنباته المغلقة وكأنه مساحة قطعت من العالم لتكون عالماً خاصا.. وبداخله كافة الطبقات المتعارف عليها ومنها الطبقة المتوسطة والتي يمثلها في الزقاق المعلم كرشة الذي يعلو عن الطبقة الدنيا بمكسبه الذي تجود به المقهى البلدي والست سنية عفيفي وهي من أصحاب العتب أو الملك والذي يعد ريعه كافياً لكي ينقلها من الطبقة الدنيا إلى ما علاها قليلاً بالإضافة إلى السيد رضوان الحسيني الذي كان يعد من صغار المنعمين أو كبار القوم الوسط وهو صاحب ملك أيضاً مالكاً لبعض الأفدنة من الأرض..

ثم لم يخلُ الزقاق من ممثل الطبقة العليا بالمعنى الكامل وهو السيد سليم علوان التاجر عن جدارة وبالوراثة والذي يحسده أهل الزقاق على وجبته المستديمة "صينية الفري بجوز الطيب" التي كما يعتقد أهل الزقاق ملأى بالفيتامين المنشط لخصوبة الرجل.

هكذا كان الزقاق.. عالماً كاملاً اشتمل على شرائح مختلفة من البشر على أن المرأة في هذا الزقاق لم تخرج عن صنفين اثنين فقط.. الوسط الأدنى والتي تمثله في الزقاق "حميدة وأمها" التي كانت تعيش على ما تخرج به من توافق

الزيجات وهو لا يكفي سوى القوت البسيط وبالتالي حميدة الفتاة الجميلة التي أوتيت من الإثارة والأنوثة ما يفوق ذلك الوسط ولكنها ظاهرياً لم تكن أهلاً له.. ثم الصنف الثاني كما ذكرنا الست سنية صاحبة الملك.. وصاحبة الفرن.. ثم زوجة المعلم كرشة فهم يملكون قوت يومهم وشهرهم بل وسنتهم فهن محسوبات من الطبقة الوسطى المستورة.

إذن فهذه صورة من حياة أهل الزقاق وما بين هؤلاء جميعاً كان المعدم والنصاب وغير ذلك.

وإذا تعرضنا لشخصية بعينها والتي ستكون محور دراستنا في هذا الفصل من خلال مسرحية زقاق المدق وهي حميدة التي أشرنا إليها وإلى الوسط والطبقة التي تنتمي إليها وهي الطبقة الدنيا.. بالإضافة إلى ما تحلت به من جمال الخَلق وليس الخُلق إذا ما جمعنا أطراف حياتها وتاريخها منذ اللحظة الأولى وحتى النهاية.

إلا أن تلك القضية لم تكن وليدة الصدفة أو أن العدالة الدنيوية كانت يقظة وغافلتها حميدة لكي تسرق لحظات من زمن مظلم رغم انتشار النور.. ولكن القضية اتخذت شكلاً طبيعياً وأحداثاً منطقية إذا ما جسدنا المسبب الذي صنعه الإنسان بيده وآثر إلا أن يقبض على أنصبة الغير وهو يعتقد أنه حقاً له وحده.. حميدة هذه الفتاة التي وصفها الكاتب:

"في العشرين من عمرها.. متوسطة القامة.. رشيقة القوام.. نحاسية البشرة، يميل وجهها للطول في نقاء ورواء" أميز ما يميزها عينان سوداوان جميلتان، لها حور بديع فاتن.. ولكنها إذا اطبقت شفتيها الرقيقتين وحدت بصرها تلبسها حالة من القوة والصرامة لا عهد للنساء بها.. وقد كان غضبها دائماً مما لا يستهان به حتى في زقاق المدق نفسه". (٢٥،٢٦)

إذن فهي فتاة أنثى جمعت في تكوينها بين جمال وأنوثة المرأة في كامل إبداعاتها وبين وحشية الرجل الذي يتهدد منه ما دونه.. فتاة بجانب أنها أوتيت من الحسن أكمله إلا أنها ذات أظافر حادة وطويلة تصيب من يغضبها.. وهذه الوحشية

مصدرها اللسان غير القصير الذي يلهب من لا يروقها أو يتعرض لها.. ولذلك كان صويحباتها يتحاشينها وربما يتوددن لها رغبة في اتقاء طول اللسان وكذلك أهل الزقاق أنفسهم لم يكن يجرؤ واحد منهم أن يتطاول عليها بما لا ترتاح إلى سماعه..

كان سلاحها الفتاك فتنتها وقوامها، حسب ما وصفها الكاتب، فتاة ناضجة جميلة جذابة، تفيض حيوية وأنوثة برية جعلت البعض، ممن يرغبون فيها يرهبون مواجهتها، إلا بالنظرات عن بعد دون التفوه بالتعبير عما يجيش في دخائلهم.. أما هي فكانت تعلم تماماً ما تتحلى به من تلك الميزات التي لم يكن لها مثيل في محيط الدائرة الضيقة التي شملت الزقاق أو ما يجاوره من حالات وأزقة. كانت تعلم تماماً أنها أجمل من كثيرات رغم ما يتحلين به من فاخر الملابس التي لم تكن تحظى بواحد منها.. ورغم ذلك فهي أبهى منهن جميعاً ولولا الفقر.. ذلك المارد اللعين، الذي جثم على صدرها وأحاطها برعايته، دون أن يتخلى عنها طوال حياتها.. سواء في المأكل أو الملبس أو غير ذلك.. ذلك الفقر، الذي اتخذ منه الكاتب القضية الكبرى، في هذا العمل الروائي، لكي يثير من خلاله إلى تناقضات واضحة في المجتمع.. ليس المجتمع المصري فحسب، بل أشمل من ذلك كثيراً.. والقارئ له حق التكيف مع القضية، وعلى أن يكون هو نفسه القاضي الذي يطلق الحكم في النهاية.

وإذا كانت الحال كذلك بالنسبة لتلك الفتاة ابنة العشرين عاماً، بكل ما تحلت به من محاسن وفتنة، تأبى إلا أن تتوارى في الخرق البالية التي تحجب ذلك البهاء.. فربما يخطر على الذهن، من الوهلة الأولى، أن ذلك هو قانون الطبيعة والعدالة العليا، في أن الإنسان لا يمكن أن يملك كل شيء والدليل بقية الأشخاص في الزقاق حيث منهم الأصحاب الذين لا يملكون شيئاً.. ثم الأغنياء غير الأصحاب، أي أن الإنسان يكفيه نبرة ميزة واحدة وعلى أن يترك الأخرى لسواه إلا أن حميدة لم تكن تقنع بذلك.. فهي ترى أنها خلقت لكي تعيش بعيداً عن ذلك المكان الضيق المظلم، الذي لا يحوي على إنسان بمعنى الكلمة يمكن أن يكون أهلاً لها.. وذلك باعترافها رداً على أمها بالتبني حينما تفاجأ بأن الست سنية ابنة الخمسين عاماً ترغب في الزواج في هذه السن وهي أم حميدة لا تجد من تسأل عنها ويكون ردها:

- لست أجري وراء الزواج، ولكنه يجري ورائي أنا.. وسأنبذه كثيراً..

- طبعاً أميرة بنت أمراء!

فتغاضت الفتاة عن سخرية أمها وقالت بنفس اللهجة الحادة:

- أفي هذا الزقاق أحد يستحق الاعتبار؟ (٢٧)

من هنا تكون السقطة التي تودي بها إلى النهاية ولكن ليس قبل أن تمر بأحداث تستغرق زمناً تعيش فيه بغيتها رغماً عنها.. فالفتاة تعترف بأنها أكبر من الزواج، الذي يطاردها أينما ولت وجهها، وهي ترى بعينها وتحس بقلبها هؤلاء المطاردين لها.. وعلى رأسهم نموذجان أحدهما يملك المال وهو السيد سليم علوان والآخر يملك الشباب وهو عباس الحلو وما بين هذين كثير ممن يعيشون يومهم بالكاد.. ولكنها ترفض كل هؤلاء.. فجمالها الذي تحسه جيداً أعظم من أن يمتلكه نفر من هؤلاء.. فماذا تريد.. هي تعلم تماماً وضعها الطبقي ولا يمكنها التنكر له.. فحينما تسخر أمها من الرد الذي صرحت به بقولها "أميرة بنت أمراء" تتجاهل حميدة هذه السخرية وما كانت لترد عليها لأنها بعيدة كل البعد عن ذلك.. ولكنها تملك ما تعجز عنه تلك الأميرة.. تملك الشكل والقد والأنوثة الطاغية وهي صفات يمكن أن تعوض الفتاة عن اللقب الاجتماعي العالي.. ولكنها أي حميدة تواصل تهكمها على سخرية الأم بتصريحها أن أهل هذا الزقاق ليس فيهم من يستحق شرف امتلاكها سواء صاحب الثروة العجوز المتزوج أو صاحب الشباب المفلس الذي لا يجد قوت يومه بطوله.. ولو أنها كانت تود أن يكون ذلك المسن أعزب ربما فكرت في قبوله..

إذن فالفتاة تعيش في وسط اجتماعي تحت خط الفقر رغم ذلك فتطلعاتها تفوق بكثير ذلك المركز الهابط وما بين التطلع والواقع مسافة شاسعة. ورغم ذلك فالفتاة تريد بل تحلم بأن تتخطى تلك المسافة ولكن كيف هذا هو السؤال، الذي كانت تقف حياله حائرة.. فهي ترتدي ما عندها من ثياب كانت بالقياس لما تشاهده من ثياب يرتدينها البنات صويحباتها العاملات أو البنات اليهوديات كالأبيض والأسود.



هكذا كانت حميدة ثائرة على الوضع الذي لم تستطيع أن تغير فيه شيئاً ولكنها لم تعجز بتصريحاتها المتكررة بأن ترفض ولو بلسانها الطويل الذي تحدث به الزقاق بأجمعه حيث كان أهله يتحاشونها واستمراراً لذلك الرفض فهي تصرح أمام أمها بكل جرأة:

- آه يا خسارتك يا حميدة! لماذا توجدين في هذا الزقاق؟! ولماذا كانت أمك هذه المرأة التي لا تميز بين التبر والتراب؟!(٢٩)

لقد كان الرفض لمثل هذه الحياة، التي فرضت عليها، وعاشتها منذ المهد وحتى هذه اللحظة، بغية التطلع إلى الأحسن، الذي لم يكن بالنسبة لها أكثر من جلباب جديد، أو مسكن نظيف، في مكان أفضل من ذلك الزقاق المغلق الذي لا تتغير معالمه منذ أن أدركت معنى الحياة فكل شئ فيه يتكرر كل يوم بدقة متناهية، ولا تتغير.. الفرن يصنع خبزاً كل يوم، وأهل الزقاق يأكلونه، والمقهى تجمع سمارها الذين لا يتغيرون إلا في النادر، وبحد أقصى واحد، الحلاق وزبائنه معروفون وعم كامل، بائع البسبوسة مازالت بضاعته كعهدها بها، حتى ولو كانت ممتازة، فهي بعينها نفس المذاق ونفس الشكل.. هكذا أحست بالتمرد من هذه الأشكال من هذه الملابس البالية، التي تزيد هذا الجسد البض وهذا الجمال الأخاذ.. على الرغم من أن البنات الأخريات يلبسن الملابس الجديدة، فأين هي منهن رغم الفارق الكبير بين جمالها وجمالهن.. وعلى ذلك فهي تتمرد بالقول في هذه اللحظة، وتجد مجرد تواجدها في هذا الزقاق خسارة جسيمة، ليس على الزقاق ولكن عليها هي.. حيث ترى حياتها تنقضي يوماً بعد يوم، دون أدنى تقدم.. نظامها الذي اعتادته يتكرر بنفس الحركات.. لا جديد.. ولكنه الاستمرار الذي يصل بها إلى الملل.. فهي كانت تتمنى ألا توجد في هذا الزقاق المغلق الممل.. حتى أنها.. تلك المرأة التي كفلتها منذ أن كانت وليدة تتنكر لها وتود لو كانت أمها غير تلك المرأة التي ارتضت حياة كسابق جيرانها الذين انتظمت معهم تلك الحياة فتقبلوها بكل ما فيها من مرارة صارت مع الأيام طعماً مستساغاً.. ولكنها هي اكتشفت أن تلك المرارة ما هي إلا عذاب مرفوض.. إنها تتمنى وتتخيل حياة أفضل يمكن أن تكون فيها غير ذلك.. يمكن أن تنتقل من حياة الكهوف، إلى حياة النور كغيرها.. ولكن تلك الأم تأبى أن تجاريها في ذلك الحلم، الذي لا يمكن له أن يتحقق..

هكذا تفكر حميدة.. وهكذا تتمنى.. وهكذا ترفض، وتعترض، وتتمرد، والأم لا توافقها عن كل ذلك.. فهي تتمنى لها زواجاً ميموناً، ينتهي بالإنجاب وامتلاك رجلٍ، ولا ضير من أن يكون أحد شباب الزقاق، وهم كثيرون.. ولكن حميدة التي شيدت لها عالماً آخر تكون فيه شيئاً مذكورا.. فهل من أهل هذا الزقاق من يمكن أن يكون شريكاً لها في هذا العالم.. من يكون؟! لا يوجد أبداً بالزقاق من يصلح لأن يلعب هذا الدور.. فكلهم معدمون لا يمكن لأحدهم أن يوفر لها ما تحلم به، رغم أن حلمها لم يكن بالشيء الكبير.. ورغم ذلك فهو حلم كبير بالنسبة لأهل هذا الزقاق.

إن الكاتب قد وضع هذه الشخصية، وفي رأسها تطلعات تفوق مقدرة أحد من أهل هذا الزقاق، اللهم إلا واحد فقط يمكن أن يحل تلك المعادلة، ولكنه لا يصلح شرعاً وهو حسين ابن المعلم كرشة، لأنه أخوها في الرضاعة وكان من الهيئة أحسن من في هذا المكان، ومكسبه لا بأس به.. ولكن.. لا فائدة من هذا كله فقد أسقطته من حساباتها، وما عداه فلم يكن ثمة إنسان يمكن أن يمسك بزمامها كرجل، أو كسيد بما لهذه الكلمة من مدلول.

لقد كانت حميدة تنظر إلى المستحيل، وتتمناه ولكن هل يمكن للتمني أن يضحي حقيقة.. وكيف..؟! هذا ما كانت تعيده ولو في الخيال مع نفسها وهي ترى ما يمكن أن يصير.. برغم جلبابها الدمور وملاءتها البالية ونعلها المستهلك.. ولكنها كانت تعرف كيف تتعامل مع هذه الأشياء، لكي تكون محور نظرات الناس سواء من أهل الزقاق أو من خارجه.. وذلك يتحقق في تجوالها اليومي، وفي نفس الميعاد ساعة العصاري.. بعد انتهاء العمل اليومي لكثير وكثيرات من الناس، ومنهم صويحباتها العائدات من أشغالهن، متحليات بثياب غالية لم تكن تحلم بأن تمتلك أكثر منها.. ولكن كيف..؟! لم تكن تملك من المال ما يذكر، يمكن بعض المليمات أو القرش أو بعضه.. ولكن الأخريات يملكن من ذلك الصنف الكثير، بالنسبة لها وهو من عائد عملهن بالطبع ولكن العمل في عرف أهل الزقاق فضيحة.. كيف للبنت أن تعمل.. هكذا كانت نزهة العصاري من الأشياء المقررة والمستديمة، ربما كانت تجد من خلالها متنفساً لكي تجدد بعض حيويتها المندثرة في بيت الست سنية، في ذلك الزقاق الذي لا تزوره شمس الحياة إلا نادراً.. فهو مغلق على أهله ما عدا السيد سليم بك الذي كان يسكن قصراً بعيداً عن ذلك الزقاق، الذي لم يكن بالنسبة له

سوى مكان تجارته الموروثة عن أبيه. وهكذا كانت حميدة تخرج لكي تخرج من داخلها هموماً جاثمة ما أثقلها، وفي نفس اللحظة كانت تشحن هموماً أخرى حينما ترى الفوارق الواضحة ما بينها وبين صويحباتها اللاتي كانت تضاحكهن من الظاهر، أما باطنها فكان ملؤه الحقد على مظهرهن.. ولكن ما حيلتها في ذلك.. لا شيء في أنها تصارح أمها بحقيقة آمنت بها نتيجة ذلك الحرمان الذي غرقت في خضمه والفخفخة التي تحلت بها الأخريات..

– حياة اليهوديات هي الحياة حقا!

وتنزعج أمها لتقول:

– إنك من نبع أبالسة.. ودمي بريء منك..

لترد الفتاة كاستمرار لحديثها الأول.. وكذلك لكي تستثيرها:

– ألا يجوز أن أكون من صلب باشوات ولو على سبيل الحرام؟!(٤٢)

إن هذا هو الحوار من حميدة لدليل واضح على الرفض المطلق لواقع تلك الحياة.. لقد كان الرفض في البداية كنوع من التعالي على أهل الزقاق، وتقييمها لنفسها طبقاً لباقي أفراد الزقاق، نسبياً، وكانت كذلك حقا ولكن الواقع واقع لا يتغير بالألفاظ.. فلابد من حدث أو فعل جاد يغير ذلك الواقع.. ولم يكن بيدها أن تأتي هذا الحدث أو أن تشرع في ذلك الفعل مادام الأمر مجرد حوار بالكلمات بين الأم وابنتها.. الأولى ترى فيه هذه الحياة نعمة، تتمنى أن تدوم.. والأخرى تراها عدماً، تحلم أن يزول ليحل محله نعيم.. ولكن أيضاً كيف؟!

ثم يصعد نجيب محفوظ حواره ويؤكده تمهيداً لتغيير مقبل ولكن لابد له من مقدمات منطقية.. فكان الحوار.. الرفض لحياة الزقاق لمجرد التمرد على الواقع.. ثم يتكون الحوار ليشكل رفضاً من نوع آخر حينما تقرر أمها بحقيقة الحياة، التي تعيشها اليهوديات، بنات جنسها وهي ترى من خلالهن تحرراً ملحوظاً ولباساً عصرياً بعيدا عن التزمت، الذي تعيشه هي.. فمقياس حقيقة الحياة بالنسبة لها نوعية الملابس الغالية، حسب منطقها، ثم التحرر من قيود العادات الموروثة والتقاليد المقدسة.

لقد أكدت حميدة الرفض بنوعية الحياة، التي تتمناها، وهي تعلم أنها لا يمكن أن يتحقق لها ذلك، طالما بقيت في هذا الزقاق المحافظ على تقاليده حرفياً.. ولكن ذلك لم يكن أكثر من حوار.. نقاش بين الابنة وأمها، لم يتوقف الرفض عند هذا الحد.. بل تزيد حميدة عليه بالتمني الذي لم.. ولن يتحقق أيضاً.. فبينما تتكر الأم من حميدة جملتها الأولى وهي تصفها على سبيل التهكم والاعتراض بأنها من نسل شيطان متبرئة، منها، لتمردها على واقع ولتفضيلها حياة اليهوديات على حياة المسلمين على الأقل.. وهذا وحده مرفوض من طبقة نشأت حياة المسلمين على الأقل.. وهذا وحده مرفوض من طبقة نشأت في حي الحسين، الذي كان يتصف بالروحانيات.. مما جعل الأم ترفض هذا المبدأ.. تزيد حميدة على القول السابق قولاً لا يختلف في المعنى، والهدف، الذي يرمي أليه.. ولكن الرفض مازال هو الأساس والتمرد هو الوسيلة للتمني أو للحلم الذي تراودها نفسها أن يتحقق..

فمادامت حياة الزقاق مرفوضة، ولا سبيل إلى هذه اللحظة من التغيير. ومادامت ترى في حياة الغير حقيقة.. وعلى ذلك فحياة الزقاق أكذوبة.. إذن فكيف يكون الخلاص.. وترمي بكلماتها على مرحلتين.. الأولى أمنية بعيدة المنال حيث يكون جواز الخبر من عدمه وهو يحتمل الإيجاب والنفي في نفس الوقت.. فهي تسأل سؤالاً استنكارياً لأنها تعلم يقيناً الإجابة.. ألا يجوز أن تكون من صلب أحد الباشوات؟!! بالطبع هذا مستحيل.. ولكنها تتمم الخبر بالجملة التالية والتي تعد مدخلا حقيقياً لسقطتها القادمة حينما تقرر "ولو على سبيل الحرام".

إنها بهذا التصريح أو ذلك التساؤل غير مجهول الإجابة ولكنه تمنٍ آمنت به وترضاه حتى ولو كان عن طريق الحرام.. طالما يمكن أن يحقق لها الحياة الأفضل.. فلا مانع من أن يكون كذلك وربما تلك الجميلة هي التي تحقق بالفعل لها ما كانت تتمناه وتزيد بكثير.. ولكن الأحداث سوف تثبت ذلك في حينها.

على أن تلك الأمنية لم تكن أكثر من تأكيد للرفض وسبيلاً للتمرد على هذه الحياة البالية التي ملتها.

فهل كان شبح الفقر الجاثم على حياتها سبباً في هذه النظرة وذلك التمني

الفظيع للانتقال من حياة الزقاق إلى مكان أرحب، والإجابة من واقع الأحداث التي قام بوصفها الكاتب، وصفاً دقيقاً، كأنها لوحات فنان أجاد استعمال الخطوط، وأكدها بالألوان المناسبة التي تتشبع سخونة، لدرجة أن القارئ يحس حرارتها طبقاً لكل لوحة، أو لكل موقف، إذا كانت الكلمات هي التي تشكل تلك اللوحات.

الإجابة، بالطبع لا.. وهذا ما سوف يتحقق بسير الأحداث.. فالفتاة كانت تحمل داخلها استعداداً نظرياً لقبول التغيير إلى الأفضل. من وجهة نظرها البحتة.. وأن تسدد الثمن الذي يطلب منها، أياً كان نوعه أو قيمته.. ومصداقاً لذلك تمردها من واقعها الذي نشأت في أحضانه، مع أم لها بالتبني أحاطتها برعاية قدر استطاعتها، لم تبخل عليها بشيء تحت يديها.. ولم يكن تحت يديها ما يشبع أطماعها، وهذه الأطماع نبتت بداخلها بغية الحصول على حياة أحسن.. حياة ترى فيها حقا لها يتناسب وتكوينها الأنثوي، ولكن من يكون وأني يقيم الذي يمكن أن يحقق لها تلك الحياة.. إن الزقاق لا يوجد فيه سوى شخصين، أحدهما متزوج وغني كان يمكن في حالة عدم زواجه أن يكون ذلك الرجل رغم كبر سنه، لكن لا بأس مادام سيتحقق لها ما تحلم به.. إذن فهذا نوع من الثمن، الذي سوف تدفعه نظير تحقيق أمنيتها.. والثمن هنا الشباب.. ثم على الوجه الآخر، كان يوجد فتى وسيم غير متزوج، يمكن أن يكون فتى أحلام، يملك من الشباب أكثره ولكنه لا يملك من الثروة أقلها.. إذن فلا يمكن بهذا الشباب أن يتحقق لها شيئٌ مما يدور في رأسها الأهوج، ولكنه في النهاية شاب بيد أنه يبادلها ذلك الشعور، بل كان غارقاً في هذا الإحساس ويتمنى أن يجمعهما بيت واحد.. إذن فالرأي الأخير هو الأفضل بالنسبة لها مادام الحل لن يخرج عن الزقاق، وحينما يلتقيان في نزهة العصرية من إحساسات وأمنيات، عارضاً عليها تطلعاته وآماله، ويسيران جنباً إلى جنب ورغم المحاولات المتكررة من الشاب "عباس"، لكي يحظى بالموافقة على ثنائية الحديث إلا أن حميدة من منطلق نظرتها المتعالية، التي ترى فيها أن الشباب ليس بأهلها فتكون المعارضة المشوبة بالدلال هي لغتها، وردها عليه، ويطول الحوار من عباس والرد المقتضب من حميدة، ولكنه حوار متبادل، رغم الاعتراض المستمر، وأخيراً لم تجد سوى كلمات، توحي ظاهرها الرفض، أما باطنها فملؤه القبول، فهي تقول بعد نقاش طويل:

- لقد جاوزت حدك.. كلا.. كلا.. دعني. (٤٤)

فما معنى هذه الكلمات، التي تدل على المعارضة والتي كررت فيه عدم الموافقة على ذلك الموقف، أربع مرات.. فمجاوزة الحد لا يعني سوى الاعتراض على حوار غير مقبول.. ثم تكرار اللفظ كلا مرتين إنما يؤكد تلك المعارضة.. ثم يختتم جملتها باللفظ دعني.. وهو لم يمسها، بل كان يسير بجانبها وكان يمكن لها أن تتجاهله من اللفظ الأول لتنهي الموقف.. ولكنها، وإن بادلته حواراً بحوار دون النظر للاستجابة، أو الرفض، فقد تم الموقف ولم يكن هذا الاعتراض إلا نوعاً من الدلال النابع من رؤية التعالي لشخصين، لم يكن التكافؤ متوافراً بينهما.. فهي أي حميدة بما أحست في نفسها من هيئة، رأت أنها أكبر من أن تكون لمثل هذا الحلاق المعدم، الذي يحصل على قوت يومه بالكاد، فمن أين يوفر لها ما تحلم به.. إذن فهو غير أهل لها.. ولكنها في ذات الوقت تحسبها بدقة "فإن لم يكن هذا الحلاق المعدم والذي يتحلى بهيئة لا بأس بها فمن إذن يمكن أن يكون في هذا الزقاق؟! وعلى ذلك فاعتراضها له كان من سبيل الدلال لكي تحفظ لنفسها مكانة عالية.. ولكنها في قرارة نفسها تميل إلى ذلك التودد الذي يشعرها بقيمتها كأنثى مرغوب فيها.. ومصداق ذلك وصف الكاتب نفسه على لسان عباس وهو يخاطب نفسه:

"أنها بادلته الكلام طويلاً.. ولو قصدت صده ونبذه ما منعها ولا أعيتها حيلة.. فهي لا تكرهه.. ولعلها تتدلل شأن الفتيات جميعاً.. ولعله الحياء الذي جعلها تقطع عليه سبيل التودد بالفرار" (٤٥)

كانت هذه نظرة عباس للموقف ولعله كان على شيء من الحقيقة وليست كلها.. ومن هذا المنطلق لم يعرف اليأس له طريقاً.. وهي أي حميدة لم يكن شعورها نحوه كراهية.. ولم يكن حباً بمعنى الارتباط العاطفي ولكن بمعنى النهاية المحتومة لكل فتاة.. زواج وبيت وإنجاب... الخ.

وهذه هي الحياة المألوفة في الدنيا.. أو في الزقاق وهي لا ترى إذن ضرراً في أن تحتفظ به لنفسها لوقت الحاجة إليه ولا أكثر.. فإذا ضاقت بها الدنيا ولم تجد بغيتها فهو الشخص الذي يمكن أن تقضي بقية عمرها في كنفه، سنة للحياة

المتجددة.. ولكنها مازالت تسعى للحصول على من يحقق لها أحلامها التي تتناسب مع جمالها وأنوثتها التي فاقت بقية جنسها سواء في الزقاق أو ما جاوره من الأحياء.. وكانت كذلك بلا شك.. وتستمر حميدة في أحلام يقظتها كلها تحظى بتحقيق جزء منها ولو على سبيل الحلم المؤقت الذي سرعان ما يزول ولكنه في النهاية يعاش ويحس.

لم تكن حميدة تدري ما ادخره لها القدر.. ولكنها كانت مستمرة في مواصلة هوايتها.. سواء في الخروج في العصر وفي بداية الليل تستعرض الشوارع الجانبية للزقاق وتكتشف في وجود الناس إحساساتهم في تقنع بما لاقته من حولها لكي تعاود الكرة وهكذا.. ربما لكي تلتقي بمن يحقق لها أمنيتها صدفة ولكن متى.. ثم يعاود عباس الكرة مرة أخرى وهو غير يائس وقد حسب حسبته جيداً بمساعدة حسين كرشة الذي كان يحصل على المال الوفير من عمله في معسكرات الإنجليز والذي كان يرفضه عباس بشدة.. هل يترك الزقاق الذي هو بمثابة بيته الكبير.. فهو كالماء بالنسبة إليه إذا كان مشبهاً بسمكة إذا خرجت منه للحظات فقدت حياتها.. ولكن الحب الذي جثم على صدره وقلبه أعطاه دفعة ومحفزاً مؤقتاً للخروج من هذا الزقاق للحصول على المال الذي يحقق لحميدة مطلبها وهو يعلم ذلك.. يعلم أنها تريد وتريد.. ويخطط لذلك السفر.. ويستقر رأيه على ذلك.. ثم يحاول أن يلتقي بحميدة ليزف إليها ذلك النبأ عن أن يحظى بلقاء هادئ يحقق له ما يصبو إليه.. وعلى الجانب الآخر وهو حميدة التي تبدي اعتراضاً نابعاً من دلال أيضاً ويستمر هذا الدلال حتى تعلم منه بمشروع السفر والمال الذي يمكن أن يجنيه من ذلك المشروع الذي يحقق لهما كل ما يتمنيانه.. ولا يكون تعليق حميدة على ذلك سوى بكلمات قليلة:

- حقا.. متى يكون ذلك؟ (٨٤)

إذن فقد جانب عباس الصواب حينما لجأ إلى هذا المسلك الذي يبغضه ولكن تحت ضغط قلبه يهون كل شيء.. فقد عرف ما ترمي إليه حميدة من تطلعات تفوق مقدرته المالية وهو بحالته الراهنة والتي كان يتمنى أن تدوم إلى الأبد.. ولكن حبه الذي جرفه إلى هذه الهاوية وهي أن يترك الزقاق فهذا صعب..

أما المستحيل هو أن يبتعد عن رؤية حميدة التي ألفها وبنى آمالاً عريضة على تحقيق هذه الرؤية لكي تضحي حقيقة.. وهذا المستحيل يتغلب عليه أيضاً إذا كان نهايته التي يود ألا تطول وهي امتلاك محبوبته المتمردة والتي لا.. ولن ترضى بالواقع.. وفي نفس الخط تتكسر حدة حميدة وتلين وتبتعد عن الدلال وتتخلى عنه فور سماع نبأ سفر عباس وهي تعلم جيداً ما يعنيه من حصوله على مال يمكن أن يطفئ ظمأ الحرمان ويفتح أمامها أبواب واقع جديد لا يمت للزقاق بصلة من قريب أو بعيد.. أمل يتحقق مع ذلك الرجل الذي يمكن أن يروقها لا لشيء سوى لإثبات معنى الحياة الدائمة لزوجين أحدهما يملك ثروة توفر لها ما طالما حلمت به، ثم رجل يكاد يكون مناسباً يقف بجوارها أمام صديقاتها اللاتي لا يطمعن بأحسن منه ولو كان فقيرا.. إذن فهو إلى هذه اللحظة يعد فوزاً لا بأس به.. وإذا وضع في مقارنة بين السيد سليم علوان فسوف يفوز بالتزكية من قلبها للفارق الكبير في السن والشباب ثم وهذا هو الأهم العزوبية التي تجعلها تنفرد برجل دون مشاركة من أحد.. على ذلك تتحول حميدة من الرفض المدلل إلى القبول المتحفظ دون أن تكشف ما بداخلها دفعة واحدة بأمل أن يتغير الوضع إلى الأحسن.. فهي وإن وافقت عباس على مشروعه لكنها تتطلع إلى أن تحرز هدفاً بالصدفة يفوق ذلك ولن تتردد في القبول أيضاً دون مراعاة الشعور الأول وهو عباس.. ربما ولكن متى أو كيف.. لا يمكن أن تتكهن.. ولكن عملاً بالحكمة الرياضية عصفور في اليد.. إذن فهذا هو العصفور الذي لا يملك ريشة واحدة ولا جناحين.. فهو في يدها وقد أطبقت عليه.. وإذن فلا بأس بأن تبحث عن صقر وليس عصفوراً وربما تجده وفي هذه الحالة تفتح يدها لتلقي بالعصفور.. هذا ما كان يراودها أو هو ما يوجد بالفعل بداخلها.

إذن فهي ليست فتاة كمثيلاتها من الإناث.. ولكنها تفوقهن في غرورها الذي لم يكن له حد.. إنها تريد شيئاً.. بل أشياء.. بل تريد كل شيء كيف..؟ لا يهم ولكنها تريد.. تريد أن تمتلك ولا يكفيها ما تحت يدها وإن كثر.. ولكنها تريد مزيداً.. وعلى ذلك فهي وإن وافقت عباس وارتضته شريكاً لها فذلك لم يكن عن قناعة وحب.. بل كان عن امتلاك أحسن ما يوجد أمام عينها أو في الزقاق على

أكثر الفروض على العكس تماماً من عباس الذي عاش الموقف واللحظة وقدم تنازلات تفوق طاقته بمراحل من أجل حميدة التي كان يعدها أمله الوحيد الذي يعيش من أجله.. ومن أجله يصنع أي شيء.. كل شيء يترك الزقاق الذي كان بالنسبة له بمثابة الهواء الذي بدونه ينتهي ورغم ذلك فهو يفضل أن يضحي بحياته في سبيل إرضاء من أحب وكان الحب صادقاً بكل ما تعني الكلمة من معنى.. ولم يكن له تطلعات سوى الحصول على قلب محبوبته.

وافقت حميدة على المشروع دون النظر للتضحيات التي سوف يتحملها عباس طالما أن النتيجة ثروة.. مال.. متاع.. تغيير.. كسر واقع كل ذلك كان يروقها حتى ولو كان الثمن إرهاق النفس التي قبلت التضحية ولم يكن مكافأتها له سوى بكلمات ملؤها الأنانية وهي تستعجل ذلك السفر.. فهي تطمئن أولا هل ما قاله صحيح.. إنها تريد أن تسمع تأكيداً وتكراراً لما قاله.. أو ربما تود أن يكون ما قاله تفصيلاً وليس إجمالا.. ثم تضيف وهي تتعجل التنفيذ بكلمة متى؟! فهي في عجلة من أمرها لتغيير الواقع وليس مهماً أن يسافر عباس ولكنها تتعجل هذا السفر بعد أن تسمع تأكيداً منه بصحة ذلك الاعتراف.. ويحقق عباس لها ما أرادت ويزيد.. ويستمر الحوار.. وتتجاوب معه تحت أمل الغد المشرق مادام سيجلب معه تحقيق الحلم.. ويصف الكاتب نهاية الاتفاق: "ومضيا معاً وراحتها في كفه الساخنة وشعرت بأصبعيه تشدان عليها بحنان، وسمعته يقول:

- سنتقابل دواماً.. أليس كذلك؟

وافترقا على هذا الوعد.. إذن فحميدة قد رضيت أو ارتضت هذا الوضع رغماً عنها وكأنما أرادت أن تدخره إذا ما ضاقت عليها الأرض بما رحبت من منال فرصة تفوق ما أتاحه لها القدر وهو عباس.. لقد كانت لها تطلعات تفوق واقعها بكثير.. ولكن هاهي فرصة سنحت لها من واقع هذا الزقاق وهي وإن كانت دون مستوى طموحاتها إلا أنها لا بأس بها إلى أن يهبها ذلك القدر نفسه بأحسن منها..

لقد أدى بها الحرمان والفقر إلى طلب المستحيل إذا ما قيس هذا الطلب

بواقعها في هذا الزقاق ونشأتها المعدمة من كل شيء حتى من الأهل ورغم ذلك فهي متطلعة إلى أعلى ويمكن أن يكون سلاحها هنا أنوثتها التي أحستها جيداً وبمقارنة هذه الأنوثة بما تحلت من جمال الشكل والتكوين بأخريات من بنات جنسها سواء في الزقاق أو ما يجاوره أو ما يبعد عنه بخبرتها اليومية أثناء تجولاتها في العصر حيث ترى الكثيرات وربما في أفلام السينما الأوليمبي التي كانت ترتادها مع أمها ومشاهدتها بعض النجمات اللائي لا تفقنها أنوثة وجاذبية.. فهي إذن ليست أقل من هؤلاء.. ولذلك فهي تطمع في الحصول على رجل يحقق لها الكثير مما لا تعرفه.. ولكن عباس يمكن أن يوفر لها مما تحلم به القليل في حالة عدم توفيقها في الحصول على الفارس المنتظر..

إن حميدة بما تحمل في داخلها من صراع على الوضع القائم في زقاق المدق جعلها تنشد المستحيل ومؤهلاتها لتحقيق ذلك لم تكن سوى جمالها الطبيعي الذي يثور جاذبية ولكن المشكلة في عدم وجود من يقيم ذلك الجمال من الرجال ذوي الجاه والثروة.. فإذا كان السيد سليم واحداً من هؤلاء الرجال فإن وضعه الاجتماعي كرجل متزوج وله من الأبناء رجال ذوي مراكز مرموقة وزوجة من أصل كريم وهو ما يعوق استقرارها في الزواج منه.. إذن فهو من وجهة نظرها غير لائق.. ثم على الوجه الآخر يوجد عباس الحلو.. فهو يملك من المقومات أكثرها وربما جميعها.. ولكن ينقصه الركن الأساسي وهو الجاه أو الثروة وهي التي تعلم عنه كل شيء نابع من الفقر الذي يجعلها ترفضه دون أدنى تفكير.. ولكنها أخيراً ارتضته مؤقتاً كرجل مناسب في حالة سفره وحصوله على ثروة مناسبة يمكن أن توفر لها ما تريد وهذا أيضاً في حالة عدم اكتشافها رجلاً يفوقه من حيث الثروة.. إذن فالثروة كانت بالنسبة لها هي الأساس حتى أنها كانت تقلب الأمور وترى في السيد سليم رغم كبر سنه رجلاً يمكن أن يكون مناسباً لو كان غير متزوج.. فالرجل المناسب من وجهة نظرها لم يكن الشاب القوي الوسيم.. ولكنه الرجل الذي يمتلك ثروة يمكن أن تحقق لها ما حرمت منه طوال عمرها المنصرم.

لقد وافقت حميدة على الارتباط بعباس الحلو بعد أن أعياها التفكير بمقارنته بغيره الذي لم يكن له وجود.. ولكنها أقامت قياسا بينها وبين صويحبات

المشغل اللائي عرفتهن منذ الصغر وكان شغلها الشاغل هو ذلك السؤال.. هل يمكن لإحدى هذه البنات اللاتي يعملن ويلبسن ويعشن حياة أفضل من حياتها بكثير أن تحصل على شاب خير من عباس..؟! والإجابة في داخلها كانت لا.. لم تستطيع إحدى صديقاتها الحصول على مثل عباس.. فهو إذن بهذا المقياس خير من لا شيء.. وعلى ذلك فقد أثبتت لها الأيام المتتالية التي شهدت لقاءات متعددة مليئة بحوارات تشييد المستقبل كل حسب ما يرى وكان عباس غالباً ما يتنازل عن مطلبه ليكون الاختيار منها هي.. التي تناسب مؤقتاً تطلعاتها بعد ما تقدم عباس بصفة رسمية خاطباً إياها وتوالت اللقاءات وحسبت حميدة حسبتها جيداً ورأت أن ذلك الحلو هو رجلها المناسب وذلك أيضاً في غياب أحلام اليقظة حتى أنها تفخر بخطيبها لإحدى صديقاتها التي رأتها مراراً معه.

- خطيبي.. صاحب صالون حلاقة!

وهي في هذا الاعتراف تحاول منها "إن أي واحدة منهن لتعد نفسها سعيدة

إذا خطبها صبي قهوة.. أو صبي حداد.. وهذا صاحب دكان أوسطى.. وأفندي أيضاً!.(١٠٢)

هكذا كانت حميدة تتطلع إلى أحسن ما في الوجود من داخل واقعها المعاش وهذا الأحسن مقياسه بمدى حصول أية فتاة ممن تعرفهن على رجل كما عددت.. صبي قهوة.. صبي حداد وما شابه ذلك أما عباس بما سيكونه فهو رجل صاحب دكان وزيه الزي الأفرنجي أي أفندي وليس الجلباب مثل أولاد البلد.. إذن فهي بالقياس لباقي صاحباتها ستكون الأفضل وهو المطلوب.. وتصل العلاقة مداها حينما يحين موعد الرحيل لعباس الذي يطلب منها وداعاً مؤقتاً ويأبى ألا يكون الوداع باليد فهذا لا يروقه ولا يشبعه وتوافقه على ذلك.

- لا أستطيع أن أخطف الوداع خطفا..

- أين تريد إذن؟

- اسبقيني على البيت وانتظريني على السلم

ويصف الكاتب اللقاء الذي تم كما أراد إلى أن يقول "وأحاطها بذراعيه.. ثم ضمها إلى صدره بقوة عنيفة تنطلق من صدر حنون مشوق، وهوى إليها بفمه فوقع على أنفها، ثم هبط على شفتيها، وكانتا منفرجتين لاستقباله".(١٠٦)

إذن فقد وصلت حميدة عند هذا الموقف إلى نقطة انطلاق لا إرادي باستسلامها لإرادة عباس الذي لم يقنع بوداع الأكف وكلمات الثناء ولكنه أراد أن يلتقي الثغران في نشوة القرب المتلاحم لكي تمتزج الأنفاس فيتزود كل منهما برحيق الآخر لعل في ذلك ذكرى في أيام الاغتراب يعيش كلاهما عليها.. وفي استسلام حميدة الذي لم يكن وليد الصدفة ولكنه مهيأ بالنسبة لها وذلك واضح تماماً في الحوار الذي دار بينهما.. فحينما يعترف عباس باستحالة إتمام لحظات الوداع هكذا بعد سلام باليد وكفى.. أنه يريد وداعاً من نوع آخر.. ورغم أنه لم يصرح بما في داخله ولم يبح بكيفية إتمام هذا الوداع إلا أن حميدة تحدد له الأسلوب بكلمة واحدة وهي "أين" فهذه الكلمة أداة استفهام عن المكان.. وكان يمكن أن تكون "كيف" فهذه هي الكلمة المناسبة في مثل هذا الموقف.. إنه يقول لا استطيع أن أخطف الوداع خطفاً.. أي أن السلام العابر لا يروقه.. إذن فكيف يكون؟!.. وليس أين يكون.. وأين.. قد حددت المكان الذي تريده ولكن من الطرف الآخر.. ويكون التحديد كما أمرها.. ويكون الطاعة والموافقة بلا تردد.. وتكون اللقاء في المكان المظلم بعيداً عن أعين الناس وينتهي اللقاء بعد أن يكون عباس قد ارتوى تماماً.. كل ذلك تصل إليه حميدة وقد اطمأن قلبها أن واحداً لا بأس به رهن إشارتها إذا لم تصل إلى الأحسن فهو جاهز وفي سبيل الحصول على المال. إن حميدة إلى هذا الحد قطعت شوطاً في طريق تغيير الواقع ونجحت.. جعلت من عباس الرافض تماماً لمغادرة الزقاق يخرج منه رغماً عنه وفي نفس الوقت راضياً في سبيل تحقيق غاية عاش من أجل الحصول عليها.. وسوف تحقق هي بالتالي ليس كل ما أملت فيه ولكن الحد الأدنى سوف يؤدي إلى أن تترك هذا المكان المغلق الذي لا يرى الشمس إلا لحظات لكي تخرج إلى النور والدنيا كما يحلو لها.. إن ذل التمرد على الواقع سوف يكسره ويأتي بواقع جديد يمكن أن ترى حميدة من خلاله الحياة كما يعيشها البشر.. وهذا كله يمكن أن يحققه عباس بعد عودته والى هذا الحد فهو يكفي في حالة عدم ظهور الشخص الذي يمكن أن يفوقه مالياً.

وقد كان بالفعل.. فقد سافر عباس الحلو وأعقب ذلك رغبة السيد سليم علوان بالزواج من حميدة صراحة حينما التقى مع أمها في وكالته وأبلغها هذه الرغبة.. ودار حوار طويل اعترفت فيه أم حميدة بالاتفاق الذي تم بين عباس وبينها شأن خطبة حميدة ومحاولتها في هذه اللحظة انتزاع موافقة الابنة على السيد سليم فهو في نظرها يساوي مائة من الحلو بعد عودته محملاً بماله الكثير ولم يعقب السيد سليم فهو يريد الفتاة حقاً وهو لها رغم بلوغه هذه السن ولكن مازال به بقية باقية من نخوة تفوق قوة الشباب نتيجة صينية الفريك اليومية..

إلى هذا الحد والتحول مازال حواراً ولم يدخل حيز التنفيذ.. فالأم أسرعت لكي تلقي بالبشارة إلى ابنتها التي وصفتها بأنها ولدت في ليلة القدر كناية عن الحظ الموفور الذي سقط عليها من السماء دون حساب أو انتظار وهي تفكر ملياً في ثروة الرجل التي لا تقدر.. ويقع الخبر على حميدة كالصاعقة.. فهل هذا حقاً أم أنها في حلم مزعج.. وهل ما فكرت فيه منذ أيام يتحقق سريعاً هكذا.. نعم إنها اختارت عباس الحلو بإرادتها ولكن بشرط وهو إلى أن يظهر الأحسن.. وربما فكرت من قبل في السيد سليم الذي كان دائم النظر إلي شباكها.. ولكنها لم تكن أبداً تنتظر أن يبوح بذلك الخبر الذي وصفته أنه "أسود" ولماذا لم يكن هذا الخبر أبيض.. هذا من داخلها أن الخبر الأبيض خبر سار حقاً ولكنه منتظر أو منطقي.. ولكن خبر زواج السيد سليم علوان من حميدة فهو خبر غير منطقي أو خبر كاذب ربما أو خبر وقعه على سمعها كالصاعقة فهو خبر غير عادي.. ويصل الهدف الثاني إلى أسماع حميدة وهي تعلم أنها مخطوبة لعباس أو مرتبطة أو بينهما قراءة الفاتحة.. إنه ارتباط من نوع ما.. أقرته أمام شهود عيان.. وباركته بلقاءات متعددة لساعات طوال وحوارات طويلة ولقاء الوداع كان ساخناً.. كل ذلك يمكن أن ينسى بكلمة واحدة هي إرادة السيد سليم في الزواج منها.. نعم فقد سبق أن رفضته سابقاً ولكن ذلك الرفض كان في أحلام يقظة.. أي بينها وبين نفسها ولم يكن طرف ثالث أو حتى طرف ثان.. أما إذا جاءها الخبر من أمها بتلك الإرادة من ذلك الرجل.. ومن يكون هذا الرجل.. إنه بالنسبة إليها خاتم سليمان الذي يحقق لها الأحلام وما فوقها دون النظر إلى أية عقبات.. فقد رحبت حميدة بهذا النبأ ولم

تناقش أمها في شيء.. الرجل متزوج.. الرجل له أبناء ورجال ذوو مراكز مرموقة في البلد.. الرجل وصل سنه إلى كذا.. كل ذلك لم يكن في حسبانها.. كل الذي طرأ عليها كما وصفه الكاتب:

"أضاء وجه الفتاة نوراً، وغمغمت لا تدري من الدهشة والسرور"(١٣٨)

ثم في إلحاح شديد والحوار قائم بين حميدة وأمها حين زفت إليها ذلك الخبر:

- ماذا قال لك؟ خبريني بكل ما قاله.. كلمة.. كلمة.. (١٣٩)

- ماذا يقول الناس عنا؟

- دعيهم يقولوا ما بدا لهم. (١٤٠)

هكذا تحولت حميدة من حال إلى نقيضه إن ما بداخلها لم يكن سوى بركان ثائر.. كورته على الواقع الذي تود أن يتغير بأي شكل كان وقد عاشت حياتها منذ أن بدأ النضج الأنثوي يكسو جسدها وتكشفه بدقة، عاشت على أمل أن تجد مكانا يستحق هذا التغيير ولم تيأس حتى كان من أمر عباس الحلو ما كان.. ترك الرجل الزقاق.. انتزع منه انتزاعاً لكي يوفر لها كل ما تريد طبقاً لمنطقه.. أما منطقها هي فكان رحيل عباس إنما يمكن أن يهيء لها الحد الأدنى من تطلعاتها المجنونة وبالرغم من ذلك فكان عباس بالنسبة لها ورقة رابحة.. وإذا كانت القيمة دون المستوى المطلوب فهي رابحة ولا بديل.. هكذا كان موقف حميدة من عباس.. خطوة على الطريق.. وهذه الخطوة تعد مرحلة تغيير بعيداً عن الزقاق.. أما السيد سليم علوان فهو بمثابة الخطوة التالية والكبيرة التي لا تحدها مسافة نحو الارتقاء.. إنها نقلة إلى العالي سوف تحقق بها ليس هجر الزقاق.. بل الوثوب نحو النور الدائم.. إن الرجل بلغ من السن أرذله.. ولكنه يجلس على تل من المال الذي سيحول حياتها إلى نعيم دائم وليست وحدها بل سيكون لأمها نصيب في ذلك الأمر الذي لن يتحقق مع ما سيجلبه عباس الحلو بعد رحلة شقاء لا تدري كم ستستغرق.. وربما لا يوفق في رحلته هذه.. إذن السيد سليم رجل مناسب والارتباط الذي تم مع عباس الحلو بسهولة يفك والفاتحة كأنها لم تكن ولا يهم اعتراض الأم

حتى أن حميدة ترد عليها بشأن ذلك حينما تهددها بشأن الفاتحة بقولها "بليها واشربي ماءها" إذن فقط وصلت حميدة إلى قرار لا رجعة فيه.. أما رأي الناس فهذا آخر ما تفكر فيه.. فهذا الرأي لا يساوي شيئاً بالنسبة لها.. لم تحاول أن تتنكر لهذا الخبر ولم تعترض ولو بكلمة مجرد التفكير في الأمر.. اسقطت الماضي بما يحوي من حساباتها وأصبحت حياتها منذ تلك اللحظة صفحة بيضاء.. أنها تريد أن تقضي عليها بما دار بينها وبين ذلك الرجل.. تريد الخبر بكل ما دار بالتفصيل.. بالكلمة.. دائماً ذلك لكي تعيش الموقف بكل أبعاده وتزن الأمور بما يعود عليها بالنفع المادي الذي سيكون تحت يدها بكل سهولة دون أية تضحية أو انتظار..

هكذا رتبت حميدة أفكارها بسرعة.. قامت بعملية تبديل وكأنها تنقل قطعتين من الشطرنج لكي يموت الملك.. وبالفعل كان قرارها هو موت واحد من اثنين.. والمنطق يوافق أن الميت في هذا الموقف هو عباس الذي باع كل شيء وترك الزقاق الذي كان بمثابة حياته وهجر أهله ووضع يده في يد الإنجليز وهو يعلم أن الثمن سيكون غالياً ولكن كل ذلك يهون في سبيل أن يهيء لمن أحب حياة تريدها هي.. وليس هو.. وبعد كل ذلك لا يجد شيئاً ويجدها في أحضان ذلك العجوز الثري.. فالنتيجة حتما سوف تكون النهاية أو الموت..

وهذه النتيجة لم تكن تشكل لها أية صعوبة.. يموت عباس لكي تعيش هي بالمنطق الذي أرادته.. وتبني على ذلك آمالاً.. ولم تكن الأم بأقل منها سعادة وهي تحسب أيضاً حسبتها بأن ذلك النعيم سوف يصيبها بالتساوي فهي الأم.. وهي الخاطبة.. وهي التي هيأت الأمور لتصل إلى هذه النهاية السعيدة.. أو المؤلمة سواء.. فما دامت ستشارك في هذا التغيير وتعيشه مع حميدة فالطوفان لعباس ولغيره من المعترضين..

ولكن القدر الذي وافق أن يكون أحدهما ضحية اختار السيد سليم علوان ليكسر منطق حميدة.. وذلك حينما يشاع الخبر بمرض الرجل العجوز وهو ما بين الحياة والموت.. وهذه نهاية لم تكن في الحسبان.. ولكنها النهاية التي لابد أن

تصدق.. فهي الحقيقة وأن عباس مازالت الفرصة ملك يديه كما كانت.. وما شيدته حميدة لم يكن سوى قصور من رمال على شاطئ بحر أهوج.

وتعود الأمور إلى سابق عهدها.. حميدة في انتظار عباس على أمل انتشالها من الزقاق.. فهي كما حسبت سابقاً.. عباس شاب تحت يديها ومستقبل شبه مضمون.. بل هو مضمون حقاً.. ورغم أنه مستقبل ضئيل.. فهو في النهاية نقلة لا بأس بها.. ومادام الأمل في السيد سليم علوان قد انهار.. فلا بأس أيضاً أن تعود مرة أخرى إلى ما قبله وكأن شيئا لم يكن.. وفي نفس اللحظة هي تبحث عن الأحسن لعل وعسى أن تعثر عليه.. وإذا لم توفق فعباس في النهاية باق.. وهو في هذه اللحظة أحسن من لا شيء.

هكذا كانت حميدة كالرياح التي لا تستقر على مسار واحد.. فهي شمالية وفجأة تتحول إلى جهة من الجهات الثلاث الأخرى متنقلة ما بينها.. وحميدة لم تكن أقل حركة من الرياح بشدتها وهدوئها وقسوتها ونسيمها.. وارتضت مؤقتاً نصيبها المتواضع انتظاراً لما هو أفضل إن وجد.

لم تكن نزهة العصر اليومية مجرد كسر جمود الإيقاع الثقيل النابع من رقابة الحركة في الزقاق أكثر مما كان محاولة اكتشاف الجديد خارج الزقاق.. الجديد في كل شيء في المناظر المختلفة.. في الحركة الدائبة في وجود الآدميين الذين يعيشون حياتهم كما ينبغي بعيداً عن النظام الثابت الذي تعيشه في الزقاق وكأن الأيام بداخله نسخة مكررة دون حذف أو إضافة.. وأخيراً في محاولة اقتناص لحظة حظ كليلة قدر تحقق لها الحلم الذي أماته السيد سليم بمرضه.. بالإضافة إلى انتشالها من عالم مجهول.. هو عالم عباس الحلو.. ربما كانت رحلتها اليومية تحوي كل ذلك.. وكأنها على موعد مع القدر.. ولكن ماذا يخبئ لها..

فقد التقت به من خلال نظرة واحدة منها ونظرات جريئة منه.. لم تكن تدري أن هذا الإنسان هو قدرها.. فهي حينما رأته ونظرت إليه لم يكن ذلك سوى مصادفة حينما كانت تحاول اكتشاف الوجود الذي احتشدت معالمه حول هذا

السرادق المقام والغناء والرقص والموسيقى والكل مباح له أن ينظر هنا وهناك وأن يعايش كل ما يدور حوله..

وهي كواحدة من الجمع الخفير مسموح لها أن تتحرك بعينيها إلى كل اتجاه وقد فعلت ذلك إلى أن التقت عيناها في نظرة إلى نظراته الثابتة والمسلطة عليها دونا عن ذلك الجمع.. نظرات تحد مسلطة عليها بالذات عن عمد وقد اكتشف ذلك حينما كانت تعيد الكرة أكثر من مرة لكي ترى هاتين العينين مازالتا تنظران إليها..

ولم تدع الفرصة تضيع منها.. عادت من الحفل إلى البيت لكي تواصل اكتشافها لهذا الرجل الذي صب اهتمامه عليها.. هل ذلك وليد الصدفة ولحظة أو لحظات عابرة وتنتهي بانصرافها.. أم أن ذلك كان عن قصد وترى ذلك من خلال النافذة لتجده مازال مسلطا نظراته إلى البيت إذن فهي تجربة جديدة.. والرجل لا بأس به من حيث الهيئة والشكل ربما يفوق عباس الحلو.. ولكن ما بداخله مازال مجهولاً.. ولكنها تبدي له اهتماماً ملحوظاً من خلال النافذة.. فهو بدوره تعمد الظهور في الزقاق والجلوس على قهوة حسين كرشة لأوقات طويلة مسلطاً عينيه على النافذة حيث لم يكن يراها وهي ترى كل حركة حتى خروج الأوراق المالية الكبيرة وهبته لصبي المقهى المتزايدة.. قد جعلت حميدة تقيمه جيداً.. إن الفارق كبير جداً بينه وبين عباس الحلو.. من كل الوجوه.. لقد اكتشفت أنه بتصرفاته هذه لابد أن يكون غنياً ربما أكثر من السيد سليم نفسه.. حتى أن الكاتب يسترسل في ذلك بقوله:

"وراقبت حميدة مجيئه يوماً بعد يوم بعين متفتحة ونفس متوثبة ولكنها أحجمت بادئ الأمر عن خروجها إلى فسحتها اليومية لرثة ثيابها وتفاهتها".(١٥٦)

تجربة جديدة تعيشها حميدة بعد أن أيقنت من فشل مشروع الخطوبة ولم يكن لها يد في ذلك.. لأن القدر هو الذي أبطل المخطط منذ اليوم الأول لميلاده.. ومازال عباس يشغل من نفسها جزءاً تحتفظ به لعل وعسى لا تنجح في الحصول على أحسن منه حينئذ يمكن أن يكون هو قدرها الذي لا مفر منه.. ولكن القدر بعث بذلك الشاب إلى الزقاق دون سابق إنذار وتلاقت العيون وشغل بعضاً من

نفسها وهي تريد أن تستمر في تلك اللعبة أو التجربة فربما تجد ضالتها.. وعلى ذلك فهي ترصد تحركاته بدءاً من قدومه إلى القهوة وطوال بقائه بها وانصرافه حتى أنها قد تأكدت يقيناً دون أدنى شك في أنه أصبح من زوار الزقاق بسببها وليس بسبب شيء آخر.. ونظراته التي تختلس الرؤية إلى الشباك المغلق إلا من فتحة لا تتيح لمن في الخارج اكتشاف ما بداخلها وهي أي حميدة يتكشف لها كل شيء.. هكذا كان اهتمامها لزائر الزقاق الذي راقها وقد تهيأت نفسها للخوض في تجربة يمكن أن تأتي ثمارها وإن لم يكن فلا خسران من ورائها ومازال عباس بالنسبة لها أملاً محققاً على أن حميدة تقلع عن مزاولة هوايتها في الخروج ساعة العصر لأكثر من سبب. فهي لم تكن تخرج إلا لتجديد حيويتها برؤية الجديد بعيداً عن الزقاق.. ثم لاكتشاف مجهول يمكن أن يحقق لها بغيتها.. وإذا كان بغيتها قد أصبح تحت عينها فلا داعي إذن للاستمرار حتى ترى نهاية ذلك الوافد.. فهو يأتي يومياً إلى الزقاق.. وهي تلاحظه وترصد كل لمحة وحركة تصدر منه باهتمام.. إذن فالموقف أصبح واضحاً وفي صالحها.. ولكن إلى متى يمكن أن يستمر ذلك الحال وهي مستترة وراء الشباك بينما الوافد ينتظر ولم يمل.. لذلك فهي قد فكرت في كسر ذلك الجمود والخروج من ذلك السجن لعلها تدفع الحدث خطوة إلى الأمام.. ولكن ثيابها التي لم تكن تناسب الموقف كانت حائلاً بينها وبين تحقيق الرغبة.. وبالرغم من ذلك وتحت إلحاح كبت متفجر وتحد سافر لذلك الرجل الذي أبدى جرأة لم تقابلها بالمواجهة وهي وراء الشباك في موقف مخز.. وعذرها أن الثياب غير مناسبة.. إذن فالخروج والمواجهة هما أنسب الطرق للوصول إلى غاية إما صائبة وإما فالبحث عن فرصة أخرى سيكون هو السبيل.. وقد كان.. نزلت إلى الميدان لتواجه الخصم حتى تصل إلى نهاية..

إن الحظ الذي رسمه الكاتب لحميدة كان دائماً في تصاعد نسبي في كل موقف ابتداء من عباس حيث بدأ ذلك الحظ من نقطة آخذاً في الصعود إلى أن بلغ ذروته بخطوبتها.. ثم نبت حظٌ آخر مع السيد سليم يبلغ الذروة في حوار من طرف واحد وهو حميدة ولو أن الأم تشاركها الحوار.. إلا أنها لم تكن طرفاً في خط الصراع النفسي الذي تحملته حميدة وحدها.. وها هي تبدأ حظاً جديداً مع

فرج بدأ أيضاً من نقطة في سرادق الانتخابات وتصاعد ومازال في التصاعد.. وحميدة تصر أن تصل إلى ذروته أيضاً.. وكان ذلك الحظ يمتد إلى مالا نهاية.. وفي خروجها تكون المصادمة التي يبدأها فرج بخلق الحوار معها وكان لابد أن يحدث ذلك.. فإن فرج في هذا الموقف هو الأقوى.. فهو الرجل ورغم أن حميدة ما خرجت إلا لتعيش هذا الموقف.. إلا أنها تتصنع الممانعة والتكلف وهو يعي ذلك جيداً.. فقد كان خبيراً حقا بصنف النساء.. ويتم التحاور الذي يكون مسهبا من قبل فرج تلغرافية من حميدة.. ولكنه حدث.. ويكسب فرج الموقف ومازال الحظ في تصاعد.. حينما ينهي الرجل اللقاء على أمل لقاء آخر وهو واثق مما يقول:

- سنرى.. سأتركك الآن على رغمي.. ولكني سأنتظرك كل يوم لن أعود إلى القهوة حتى لا أثير الشبهات في الزقاق.. ولكنني سأنتظرك كل يوم.. مع السلامة يا أجمل من حملت الأرض. (١٦٥)

وينتهي اللقاء وتعود حميدة إلى بيتها في الزقاق لكي تراجع الموقف لترى أن فرج هذا كان هو الأقوى.. فقد بدأ الحوار.. وقد أنهاه وفرض عليها موقفاً تاركاً إياها وكأنه واثق من نفسه.. ولكن أين هي من كل ذلك.. فإنها لم تتخذ موقفاً مضاداً.. ولكن لماذا تتخذ ذلك الموقف لقد كشفت أنه شاب جينتلمان ذو أسلوب مهذب هي التي تصورته عكس ذلك.. ثم أنها تملك من الإرادة والقوة ما يمكن أن تساويه.. وها هو قد ترك لها الخيار محدداً مكاناً آخر بعيداً عن الزقاق.. مؤكدا بأنها سوف تأتي.. وسوف ينتظرها كل يوم ثم يختتم حديثه بمدح لم تسمع مثله من قبل.. إذن فهي تجربة تستحق المعايشة.. ولابد أن تدخل تلك الحرب وقد حسبتها سابقاً فهي إن لم تخرج منتصرة فهي لن تخسر شيئاً.. كذلك فهي لم تنسى مبادرته في كل ما حدث ابتداء من نظراته المفترسة في المرة الأولى.. إلى زيارته القهوة كل يوم.. إلى اقتحامه وحدتها وبدء الحوار واتهامه واختيار المكان المناسب للقاء المرتقب وكأنه قد ملك زمامها ملقياً أوامره وهو متأكد أنها سوف تقوم بالطاعة في التنفيذ دون معارضة.. كل ما بداخلها من جبروت شبت عليه في الزقاق كان غالباً على عاطفتها حتى أنها تقرر - رغم موافقتها مواصلة البداية - عدم التنفيذ إلا إذا كسر هو الاتفاق الذي أبرمه من طرف واحد.. وعودته أولاً إلى

القهوة ثم تقرر هي ما ترى.. وتنفذ ذلك بعدم خروجها في اليوم التالي لترى ماذا هو فاعل..

لقد أقدمت حميدة على هذه الحيلة بدافع التمرد الداخلي والكبرياء الذي ينبع من جمال أحسته جيداً ووجدت من خلاله استعمال الدلال حيناً والقسوة العاطفية أحياناً لأنها في النهاية تتحكم بقوة سلاحها المؤثر وهي تعلم ذلك.. وإذا كان فرج تميز بشباب وسيم وهيئة منظمة توحي بعلو شأنه وكثرة أوراق مالية تعلن عن ثرائه قد عقد معها صفقة لم تتافس بعد ولكن الاتفاق المبدئي قد أبرم مع آخر لقاء تم بينهما من طرف واحد وهو فرج دون شك الذي كانت بيده دائماً نقطة البداية.. وحتى نقطة النهاية.. فإن ما أقدم عليه لم يكن سوى إعجاب غير عادي.. فثمة إعجاب يستغرق موقفاً وينتهي.. أو بعض الوقت ويزول.. ولكن هذا الموقف الذي امتد هكذا إلى ذلك الوقت ولم ينته بعد.. فإن الطرف الآخر يصر إصراراً على مواصلة الحوار والحدث وإلا لما صدر منه ما صدر من ترك مصالحه والانقطاع بانتظام في القهوة في الأيام الخوالي.. ثم مطاردتها فور بداية نزهتها العصرية.. ثم مهاجمتها بطريقة تنم على الجرأة المتناهية إن كل ذلك ليس له تفسير لديها إلا أنه متمسك بها إلى أبعد من ذلك.. ولكن السؤال الذي يفرض نفسه بإلحاح هو.. ما الدافع الحقيقي وراء كل ذلك؟!.. والإجابة تخرج من داخلها بالمنطق العادي الذي عاشته أكثر من مرة.. ابتداء من عباس الحلو الذي كان معجباً أيضاً وحاول التحاور معها ونجم واستمر الحوار ثم كانت النهاية الطبيعية الخطبة والوعد بالزواج وقد غادر الزقاق رغماً عنه بغية الحصول على الثروة المتواضعة جداً بقياسها والتي تحقق الآمال كلها بحسبته هو..

ثم يؤكد ذلك السيد سليم نفسه ذلك الرجل الذي لم يكن بحاجة إلى ترك الزقاق لنفس السبب الذي لجأ إليه عباس حيث إنه كان يمتلك الثروة التي تعد بكل المقاييس.. سواء بالنسبة إليها أو من منطقه هو.. كافية بل تزيد وتفيض.. حينما فكر الرجل الذي هجره الشباب منذ عدة عقود.. حينما فكر في اتخاذ زوجة له ولم تكن سوى حميدة عقد العزم على إتمام الصفقة دون أدنى تردد وقد بنت هي آمالاً عريضة على تلك الزيجة التي سوف تحقق لها أحلامها وتشمل أيضاً

أمنيات الأم نفسها.. إلا أن القدر لم يرد أن تتم هذه الزيجة ولم تكن لتعترض على ذلك القضاء حيث إن عباس الحلو كان بالنسبة إليها رهن الإشارة.. إذن فهذا الرجل الذي اطمأنت من داخلها إليه وارتاحت له جوارحها من هذا المنطلق لن يكون أقل من هذين الرجلين السابقين مطمعاً أو طلباً.. عدة لقاءات ثم مشروع الزواج وهو في هذه الحالة سوف يفوق التجربتين السابقتين.. فهو يفوق عباس من حيث الهيئة والشباب والوضع الاجتماعي.. ثم إنه يتفوق أو هكذا تصورته.. على السيد سليم في ثرائه من منطلق رؤيتها له وهو يخرج الأوراق المالية بسهولة.. إذن فهو يفوقهما من الناحية المميزة لكل منهما.. إذن فهو كسب لها.. ومع ذلك فهي تود أن تكون المبادرة هذه المرة بيدها وليست بيده.. فهو قد أمر واطمأن على الطاعة من ناحيتها.. ولكنها تأبى إلا أن تختار هذه المرة.. وعلى ذلك تقرر عدم الطاعة.. لن تخرج للقائه في المكان والزمان اللذين حددهما ولينتظر حتى يمل.. وإذا فشل في تحقيق ما أشار إليه فسيحاول أن يراها.. أو على الأقل أن يكون قريباً منها.. والسبيل في هذه الحالة لن يكون سوى التشريف للزقاق واتخاذ مكانه المعهود في القهوة قبالة شباكها وسوف تراه بعين التحدي والانتصار.. هكذا كان قرارها الذي اتخذته ونفذته.. ولكي تتأكد من صدق ما فكرت فيه.. يشهد الزقاق بعد أن يخيم الظلام على الزقاق.. تشهده قادما وهي في انتظاره.. رأته وابتسامة التسليم تكسو شفتيه وإطلاق نظراته التي وصلت إليها يحثها، بعثت بدورها بنظراتها لتصل إليه من خلال فتحة محددة من النافذة لتتلاقى النظرتان وكان الاتفاق مع الاعتذار قد تم.. وارتضى فرج هذا التصالح.. وارتضت حميدة هذا التسليم لكي تدبر أمرها فيما يمكن عمله في الغد.. وهنا يؤكد الكاتب على موقف حميدة من كل ذلك حتى حان الموعد المرتقب العصر:

"وفي عصر الغد غادرت البيت بقلب ملؤه الشوق والتحدي والهيام بالحياة.. وما كادت تخرج من الصنادقية حتى رأته عن بعد واقفاً عند ملتقى الغورية بالسكة الجديدة".(١٨٠)

إذن فقد أبت حميدة الطاعة لأمره المجرد إلا بعد أن يقدم هو أولاً الولاء والطاعة لمخططها الذي لم يكن سوى أمر أيضاً صدر من داخلها وكان شرط

الالتزام بالتنفيذ من ناحيتها.. وحيث أن الطرف الثاني "فرج" قد نفذ شرطها دون نقاش وأتاها مستسلماً ومسلماً بنظراته والابتسامة تكسو وجهه دليل التسامح.. فإنها لم تكن بدورها أقل منه انصياعاً لذلك الأمر.. فقد تهيأت واستعدت لذلك اللقاء وكلها أمل في انتزاع حوار تتمنى نهايته الشرعية.. ومن حيث تركيبتها المعقدة فهي كما ذكر الكاتب يملؤها الشوق.. ذلك الشعور الذي يجعل الإنسان يقدم حياته نظير رؤية المشوق إليه.. وفي نفس الوقت يسيطر عليها التحدي للطرف الآخر وليس الاستسلام.. وبجانب هذين المتناقضين يكون هيامها بشخصه غامراً إحساسها.. إذن فهي مشاعر متناقضة تماماً ولكن ذلك ليس بغريب على شخصية حميدة التي حملت داخلها نفس ذلك التناقض.. أحدهما مورث والآخر مكتسب.. فهي من حيث الخليقة التي لم يكن لها حيلة بشأنها كانت تتحلى بالجمال والأنوثة والفتنة.. وكل هذه الميزات لم يكن لأحد شأن بها.. فهي خلقت على هذا الحسن بالإضافة إلى ذلك عاشت منذ ولادتها إلى لحظتها هذه تحت خط الفقر وهذا مكتسب لأن تغييره لم يكن بالشيء الصعب.. وكان السيد سليم قادراً على تغييره لو لم يقهره المرض.. وحتى عباس الحلو كان يمكن أن يعدل فيه حينما يعود.. إذن فالتناقض كانت تعيشه حميدة فلا أقل من أن تحمله داخلها وهي تستعد للخروج ساعة العصر كالمعتاد ولكنها هذه المرة لم تكن قاصدة من وراء تلك النزهة الاستمتاع بما ترى في طريقها كسابق عهدها.. ولكنها تنتظر مفاجآت يمكن أن تحدث وكيف يكون موقفها حيال ذلك الرجل إذا التقت به.. أتتجاهله تماماً أم يكون التمنع المشوب بالدلال هو الأسلوب الأمثل.. أتبادله الحوار منذ اللحظة الأولى.. أم تدعه حتى يصل إلى الإحباط ثم تنتشله حينما يهوي.. أتبتسم له فور رؤيتها له.. أم تتجهم في وجهه.. ربما دار كل هذه التصورات أمام عينيها كي تمهد للتصرف الذي يناسب غرورها والتحدي الذي تسلمت به وكان وسيطاً بين الشوق والهيام ووسط كل هذه الاحتمالات التي ظنت أنها كافية لتحقيق اللقاء المرتقب والذي يحفظ لها ماء الوجه ويجعلها سيدة الموقف حيث إن ذلك سوف يجعل لها الريادة في كل شيء.. وبينما هي تغادر المكان "الزقاق" ولم تكد تخطو خارجه خطوات معدودة حتى لمحته وبدت تقوم بتنفيذ أولى خطوات التحدي حينما تجاهلته لكي تواصل إحدى الطرق التي استعرضتها مع نفسها.. ولكن المفاجأة غير

المنتظرة أنه لا يأبه بهذا التجاهل.. بل يتقدم نحوها بخطى ثابتة ماداً يديه ممسكا بيدها بقوة كأنه يعرفها عن قرب منذ زمن طويل.. وكان ذلك كافياً أن يهدم لها نظريتها التي بنت عليها مخططها للاحتفاظ بكرامتها كانت هذه الحركة قد كسرت كل ما تهيأ لها من إمساك الزمام لذلك الموقف وكعادته يسيطر على زمام الأمور ويكون هو سيد الموقف منذ الجملة الأولى وحتى الوداع على أمل لقاء آخر.. لقاء دائم.. حيث يبدأ حواره بعد اشتباك الأيدي:

- مساء الخير يا عزيزتي. (١٨٠)

وينهي حواره والموقف بأكمله بعد أن يكون اللقاء قد أثمر تماما:

- لا تنسي الغد.. سنبدأ حياة جديدة رائعة..أحبك.. أحبك أكثر من الحياة نفسها. (١٩٥)

إن ذلك الموقف الذي شكل نقطة تحول كاملة في حياة حميدة لم يستغرق من الموقف أكثر من ساعة تحسب في الزمان ودهراً بأكمله بل عمراً بحساب النقلة الهائلة التي حققتها وهي لا تدري ما يدخره القدر بعدها ولكنها من منطلق التحدي الصارخ الذي كان جاثماً داخلها أرادت أن تثبت لفرج ولنفسها أيضاً أنها خصم عنيد لهذا الغازي الجريء.

ومن منطلق التحدي ارتضت أن تترك يدها في يده لكي يعبث بها كما يحلو له وكأنها لا تبالي وفي قرارة نفسها كانت تعيش لحظات ملؤها النشوة التي لم تحظ من قبل بمعايشتها ولكنه العناد الذي أبت معه أن تعترف بما يجول في داخلها.. ولم يكن فرج باذخاً لكي يدعها تلعب أمامه هذا الدور.. فكانت حواراته بمثابة تحد حتى يجعلها تنساق معه إلى النقطة التي أرادها وهي مشاركته في التاكسي الذي لم تكن قد استعملته من قبل وهذا أول الخيط.. فقد قطع التاكسي شوارع لم ترها واستعرضت صنفاً من البشر لم تكن تعاملت معهم ربما في أفلام السينما.. ولكنها تشاهدها رؤية العين وتعايش اللقطات الحية معايشة المواجهة.

هكذا كانت حميدة التي أرادت أن تثبت أنها أكبر من هذه التجربة وهي تعتقد أيضاً أن ذلك الرجل سوف يرتبط بها مثل ما أقدم غيره في الماضي

القريب.. وعلى ذلك فهي ترى أنها في أمن.. حتى أنها لم ترفض دعوته على زيارة بيته متحدية تحديه السافر وكأنهما خصمان في مباراة مصارعة ولابد أن تصمد أمامه وفي داخلها النصر المبين..

قطعت حميدة مع فرج هذا الشوط دون أن تبدي خوفاً وفي نفس اللحظة عاشت هذا الوقت في سعادة لم تكن تريد أن تعترف بها حتى لا يظن الآخر أنها قد استسلمت..

وإذا كان فرج قد قضى معها هذا الوقت وهي تلازمه دون أدنى تردد وسارت معه في الشوارع ثم استقلت معه التاكسي وبعدئذ تدخل معه بيته أو كما يدعي هو أنه بيته.. ثم يكشف لها حقيقة الحياة في الزقاق ولم تكن في حاجة لمن يذكرها بالحياة التي انغرست فيها منذ المهد إلى هذا العمر.. ولكنه يجسد لها ذلك بعدما جعلها تعيش معه هذه الفترة القصيرة ولكن شتان ما بين ذلك وما عاشته في الماضي الذي لم يمض عليه أكثر من ساعة أو يزيد.. لقد خلق في داخلها صراعاً مريراً بكشف الواقع المرير بالنسبة لها مقارنة بالواقع الجديد.. هذا الصراع كان خط الانحراف الذي بدأ معها منذ تلك اللحظة.. والتمرد الواضح على واقع كانت تعيشه وترفضه دون أن تعلم عن عكسه شيئا.. ولكنها الآن بعد أن جربت هذه الفترة من حياة واقع جديد بهرها فيه كل شيء.. فالتمرد هنا أصبح يعني النقيض المضيئ أمام الآخر المظلم.. وأصبح الصراع يتخذ قطبين واضحين يسيطران في آن واحد عليها.. وعليها إذن أن ترجح أحدهما.. وهي في الأصل كانت ترفض الواقع الأول.. واقع الزقاق بكل ما يحمل من بشر ومساكن وأزقة وقذارة ورتابة.. الخ.. وقد خلق لها فرج واقعاً آخر لكي يجعلها تختار.. وإذا كانت حميدة بعدما قضت مع فرج هذا الوقت بدعية أنها ندٌّ له فهي أيضاً في اللحظة الأخيرة لحظة الوداع بعد ما أعادها مرة أخرى إلى التاكسي بدلاً من قطع الشوارع على الأقدام.. فهي ترفض دعوته للقائه في الغد كما أراد.. لم يكن هذا الرفض أيضاً إلا نوعاً من إثبات الذات وهي تعلم تماماً أنه ممانعة وليس رفضاً.. والأغرب من ذلك أن فرج نفسه يعلم ذلك حتى أنه يعترف لنفسه بحقيقة أمرها والذي ربما لم تكن حميدة نفسها تعلم عنه شيئا..

لقد جعلها فرج تشهد واقعاً يختلف تماماً عن واقعها بكل المقاييس وكأنما أراد أن يختصر من الوقت أكثر لكي ينقلها إلى عالمه وهو يعرف تماماً مدى تطلعاتها.. من نظرات عينيها التي فضحت ما بداخلها.. وهذا الواقع الجديد لم يكن سوى صورة واضحة لحياة ربما تمنت أن تحقق أدنى مرتبة منها سواء بالزواج من عباس أو السيد سليم.. ولكن ذلك الرجل الوافد جعلها ترى قمة ما كانت تصبو إليه وتركها لتبيت ليلتها وهو يعلم أنها سوف تحضر في الغد وأمامها فرصة كافية لكي تتخذ قرارها الذي لن يكون سوى التسليم حينما تكون المقارنة بين الواقعين هي الحكم في الاختيار.. وأن فتاة مثل حميدة بكل ما تتصف به من تطلعات وما تتحلى به من ثياب رثة سوف يكون في صالحه.. وهكذا كانت الساعات التالية للقاء وحتى نهاية الليل ملأ بالاشتباكات المستمرة بين الواقعين.. وهي ترى وتسمع من رواد القهوة الذين ملتهم جميعاً أشباحاً وأصواتاً معتادة كسابق عهدها بهم.. هذا الواقع الذي استوعبته جيداً ورفضته مراراً منذ أدرك معنى الحياة وحتى ما قبل لقاء فرج بدقائق.. رفضته دون أن تجرب سواه.. على أمل أن تحقق ذلك مستقبلاً تحت بند الارتباط بمن ينقلها من هذا الزقاق نهائياً دون الاهتمام بالعمر أو الشكل.. مادام سينتشلها من ذلك الواقع إلى الأحسن.. عباس.. سليم.. فرج.. أي إنسان فالدافع لم يكن في كل هؤلاء الحب أو حتى العاطفة بأدنى مراتبها.. ولكنه المال الذي به يمكنها أن تهجر حياة سئمتها إلى حياة أخرى تنشدها..

وعلى ذلك فإن فرج لم يكن يتخير عن عباس أو سليم إلا بثرائه الذي شاهدته وعاشته بعضاً من الوقت وفي نفس اللحظة فإن فرج هذا يفوق عباس في هيئته وسليم في ثرائه.. إذن فهو الذي يمكن أن يحقق لها ما تريد.. هكذا كانت ساعات الليل.. صورتان واضحتان أمام عينيها التي أبت الاستسلام للنوم إلا بعد أن تحسم الأمر.. أن تمحو حياة وتختار الأخرى وليكن ما يكون وباستعدادها النظري ورفضها السابق للواقع لا تتراجع عن اختيار الحياة الأخرى مهما كانت الأسباب..

ورغم أن حميدة تسلم للواقع الجديد.. إلا أنها مازالت ترى أن كرامتها لن

تسمح لها بتنفيذ أوامر فرج بكل سهولة.. إنها تريد أن تفعل شيئا لكي تكون على قدم المساواة معه وهو الذي انتصر عليها في كل المواقف ورغم ذلك هاهي تخرج للقائه وقد عقدت العزم على تنفيذ رغبة حارقة وهي أن تكون المبادرة منها هي ولو لمرة واحدة.. ولكن ذلك أيضاً لم يحدث.. حينما يلتقيان لا يأبه بها بل يدعها وشأنها وكانت تنتظر منه أن يكرر سيناريو الأمس.. يمسك يدها لكي تسحبها هذه المرة ولكنه حتى هذه المرة لم يفعلها لكي لا يدعها تحقق ما أرادت وتحاول العودة مرة ثانية بعد ما ترى بنات المشغل وتخشى ألسنتهم يلتقي بها مخاطباً وأيضاً بادئاً بالحوار الذي يحسم القضية لصالحه هذه المرة:

- ماذا أرجعك؟

وتتردد قليلاً ثم تقول بعد تلعثم الكلمات الخارجة:

- بنات المشغل

ويرد بارتياح

- إلى الأزهر فلا أحد يرانا. (٢٠٢)

هكذا يتصاعد خط الأحداث إلى قمة الموقف بعد أن سلمت حميدة زمام أمرها على الأقل في هذا الموقف إليه دون تردد.. ولو أنها توقفت للحظات قبل أن ترد عليه سؤاله.. إلا أنها أخيراً بادلته الحوار بمثله وهذا ما جعله يشعر بارتياح.. فإن هذا الرد كان بالنسبة لها موافقة ضمنية من حميدة على كل ما سوف يقع منها أولها.. إنها ترد عليه دون تحفظ والرد له معنى إيجابي صريح.. فهي تحاول العودة من حيث أتت لا لسبب إلا لأن بنات المشغل صاحباتها قادمات وتخشى أن يتغامزن عليها لذلك فهي ترى في العودة والهروب من ذلك الموقف خلاصا ولو مؤقتا حتى تفوت عليهن هذه الفرصة.. إذن فإن لم يكن هؤلاء البنات فلا شك أنها كانت ستستمر حتى يلحق بها وهذا وحده كاف لأن يفسر له موافقتها على الطريق الذي سيجبرها على قطعه إلى نقطة ما.. وسوف يرى إن كانت ستواصل معه - وهو متأكد أنها مادامت قد حضرت كما طلب منها بالأمس فلن تفارقه لأنها ما حضرت إلا بعد أن قلبت الأمور على كل الوجوه واختارت وهي الآن تقوم بالتنفيذ

بكامل إرادتها - إذن فعذرها هنا كان خوفها من البنات ولا شيء آخر وعلى ذلك يتملكه الارتياح ويكون مبادراً أيضاً وموجها في اختيار الطريق الآمن وأيضاً في هذه المرة تكون الطاعة من ناحيتها..

إن التمرد والرغبة في التغيير للواقع التي ملته حميدة.. ثم لتأكدها من حسن هيئتها من جمال وقوة أنوثة طاغية يمكن أن تفوق بنات جنسها اللاتي يعشن معها سواء في الزقاق أو ما يجاوره.. ثم ثمة سبب آخر وهو أنها أحست أن أمها هذه ليست أما شرعية ولكنها كأمها قامت برعايتها بإمكانيات محدودة للغاية.. وأن هذه الهيئة وذلك الجمال لم يخلق لهذا الزقاق وعلى ذلك فالرفض كان ثمة غالبة في حياتها والتطلع المستمر إلى الأحسن الذي لم تعرف كيف يتحقق ولو أنها سمعت عن بعضه من عباس وتخيلته كله من أمها حينما أتتها بخبر السيد سليم ورغبته في الزواج منها ولكن كل ذلك كان مجرد كلام سوف يتحقق بعد سنة أو أكثر إذا ارتبطت من عباس الذي لم تَكُن تَكِن له أية عاطفة وتخيلات لليلة واحدة حينما زف إليها نبأ السيد سليم.. وعلى ذلك فهي لم تر ولم تسمع عن ذلك والآن الفرصة قد سعت إليها بكل سهولة.. إذن الواقع هنا كان قوياً والاستعداد المسبق للتنفيذ دون تردد كان مهيأ.. ولكن العقبة الوحيدة أمامه لم تكن سوى إحساسها بأن فرج هذا يمسك دائماً بزمام الموقف وهي ما عليها سوى الطاعة.. وهذا وحده ما جعلها تحاول ولو مرة أن تكون هي السيد وهو المسود..

وحتى ركوبها معه التاكسي للمرة الثالثة كان هو المتفوق وكل ما أراده يحققه.. إنها لم تكن رافضة ولكنها ممانعة فقط لكي تشعره بأن ثمة أشياء يمكن أن تتفوق عليه في تحقيقها مادام هو الراغب وهي المرغوب فيه.. إذن فبيدها الإيجاب والرفض.. ولم يكن ذلك يغيب عن ذهنه.. وأراد بالفعل أن يهبها ما أرادت وأن يحقق لها هذا الحلم الذي لم تستطع حتى هذه اللحظة أن تحققه.. وهذا كان في الخطوة الأولى لاستقبالها وتحويلها من حياة عاشتها قرابة عشرين عاماً إلى حياة جديدة بكل معالمها وكان ذلك يعد صعباً عليه إلا أنه بتجاربه المتعددة يمهد لهذا التحويل بالاعتراف الذي لم يكن يحمل لفظاً واحداً من داخله:

- الله وحده يعلم كم تعذبت يا حميدة لم أنم من ليلتي ساعة واحدة أنت لا

تدرين يا عزيزتي ما الحب.. ولكني اليوم سعيد.. بل أكاد أجن من الفرح.. رباه كيف أصدق عيني؟ شكراً يا محبوبتي شكراً والله لأجعلن من السعادة أنهاراً تجري تحت قدميك.. ما أجمل الماس حول هذا الجيد (ومس جيدها برقة) ما أروع الذهب حول هذا الساعد (وقبل ساعدها) ما أفتن الروج في هاتين الشفتين (وهوى برأسه ليقبل ثغرها ولكنها تحامته فلثم خدها) يالك من فاتنة نافرة. (٢٠٢)

لقد كانت حميدة منذ رأت فرج وهي ترى فيه التفوق الواضح فنظراته المفترسة التي لم تفارقها لم تستطع هي أن تتحداها إلا بنظرة خاطفة سرعان ما يقهرها الحياء.. أو الخوف.. نعم لم تستطع أن تتحداه ولو بالنظرة المستمرة كما فعل هو.. ثم ما كان من أمره بعد ذلك في اتخاذه القرار في اقتحام الزقاق حيث كانت هي الشخص الوحيد الذي يعلم تماماً ما وراء هذه الزيارات المنتظمة.. ألأنه هو الرجل.. ربما.. ولكن ذلك التفوق يستمر بعد ذلك.. حتى بعد أن تتطور المواقف.. ثم أيضاً بعد أن تستجيب هي له في كل ما أراد ولكنها يمكن أن تكون قد ملت هذا التفوق وقد آن الأوان أن تثبت له وجودها كامرأة مرغوب فيها.. وإلا لما أسرف هو كل هذا الوقت والمال لاستمالتها.. ولأن فرج بدوره كان يعلم عنها الكثير بحنكته وتمرسه في هذا الميدان فقد أراد أن يحقق لها مرة ما أرادت حتى يمكنه بسهولة أن يصل إلى نقطة التحول دون هذه الممانعة التي قرأها جيداً في تصرفاتها.. وعلى ذلك فهو حينما بادرها بحواره السابق لم يكن يقصد المعنى الحقيقي لأي حرف مما قاله.. ولكن الموقف وتطوره كان يحتم عليه أن يقدم لها هذا الولاء.. وأن يجعلها ولو لمرة واحدة سيدة الموقف فهذا وحده يمكن أن يرضي غرورها وهو متأكد تماماً من أن هذا الحوار سوف يلقى القبول.. فهو حينما يعترف لها بعذابه وأرقه منذ لقائها الأخير وحتى هذه اللحظة.. حيث كانت هي بدورها قد شاركته نفس الشعور الذي يحكيه.. ولكن شعورها كما تعلم هي كان حقيقة ولم يكن مجاملة.. هذا الاعتراف كان كافياً لأن ينتزع منها هذا التحدي.. فهو قد جعلها السيد وباعترافه يكون المسود وهذا ما أرادته وما سعت كثيراً بفكرها لتحقيقه.. ثم يلجأ معها إلى التطور في الحوار فبعد أن مهد لها بأهميتها بالنسبة له يكون لفظ الحب محور تساؤل لكي يفتح أمامها طريقاً يعلم أنه مسدود

في هذه اللحظة وإلى الأبد.. فحميدة من وجهة نظره لم تخلق للحب ولكنها خلقت لشيء آخر وهو إذن يرحب بهذا الشيء.. بل إن هذا الشيء كان أساساً محور اهتمامه.. ولكن لا بأس من ذكره.. الحب يعني الكثير بالنسبة للفتاة ولا بأس أيضاً أن يكون هذا اللفظ بداية للوصول إلى الهدف الذي ينشده.. ومن منطلق التكوين النفسي لحميدة لم تستطع أمام ذلك سوى التسليم.. وهذا وحده منتهى ما رمى فرج إليه وبذلك تكون الاستمرارية في الحوار مع الصدام الحقيقي لاكتشاف نقطة الضعف منها.. ولأنه كما سبق ذكره.. كان خبيراً في ميدان النساء من كل صنف فهو يبدأها بتعدد المحاسن الظاهرة والتي يكون "الجيد" هو المحك الأول.. ثم اليد مقبلاً إياها.. وأخيراً الشفاة التي لم تمكنه حميدة من تقبيلها ولكنه لا يعجز أن يمس الخد بشفتيه.. أي أنه في النهاية قد قام بتجربة أيقن أنها ناجحة بنسبة عالية.. ويكون استمراره معها بالحوار الذي لم يعقه شيء بل كان الاستسلام الكامل هو رد الفعل من قبلها.. ورغم ذلك لم يمكن في عجلة من أمره لإنهاء المخطط في لحظة.. بل أنه من منطلق إرضاء غرورها يجعلها تتحكم في شكل الحياة ولو لليلة واحدة.. فالأيام قادمة كثيرة وسوف ينال ما أراد وسوف تخطو هي إلى الأمام في ركابه.. فقد هوت ليس الآن بل منذ اللحظة التي سلط عليها ناظريه واكتشفها ولاحقها وحقق ما فكر فيه بالحرف الواحد.. فقد كان أستاذاً في فن الرذيلة.

ولأن حميدة بما زودت به من إمكانات في الشكل وإثارة وأنوثة طاغية وفقر دائم لحياة رتيبة ملؤها الحرمان من كل شيء.. وتطلع نابع من معايشة الحياة خارج الزقاق نتيجة الاحتكاك بالعالم الخارجي في النزهة العصرية.. بالإضافة إلى زيارة السينما التي عكست أمامها الصورة البراقة لحياة طبقة من البشر ربما رأت في نفسها تفوقاً على بعض شخصياتها.. ثم هذه الفرصة التي سنحت لها مع ذلك الرجل ذي الشخصية القوية والثراء الواسع.. فقد أيقنت أن ما تخطوه سوف يدمرها.. ولكن سيحقق لها نوعاً من الحياة التي طالما حلمت بها.. وها هو فرج يمهد لها بالفعل مذكراً إياها بأنواع المجوهرات التي تليق بكل عضو من هذا الجسد المرغوب فيه والتي لم تكن حتى هذه اللحظة قد تكشفت أبعاده.. ولكنها

سلمت من داخلها.. وكعادتها تشترط ألا يتم هذا التسليم رسمياً وعلنياً إلا بعد أن تكون لها الكلمة العليا وأن يصدر منها هي التوقيت للمرحلة الانتقالية التي سوف تدمر ما من بغيض ولكنها كانت تعيشه بقدر كبير من عزة النفس والطهر ثم خلق حاضر مظلم ولكنها سوف تعيشه في رخاء محققة كل ما كانت تتمناه إذن فليست هناك مشكلة في التحول سوى أنها تحدد الزمان أما المكان فقد استقرت عليه وارتضته.. ومن ناحيته هو أي فرج فلم يكن في عجلة من أمره طالما أن الفريسة أصبحت بين يديه راضية مرضية.. وعلى ذلك فإن حميدة تكون قد قطعت نهاية طريق البداية بخلعها ملابس الزقاق وارتدائها الرداء اللامع كبداية لحياة مغايرة وهي الخطوة الأولى على طريق الدمار والضياع ولكنه يشبع رغبة جامحة لحياة طالما ناشدتها دون أدنى أمل.. لقد بحثت عنها طويلاً وكانت مستعدة لقبول رجل دون شروط لما يتحلى به إلا شرطاً واحداً هو أن يمكنه تحقيق حلمها لم يكن الحب شرطاً في ذلك الرجل ولكن المال هو الأساس.. كذلك لم يدر بذهنها أن الرجل يمكن أن يكون رفيقاً وليس زوجاً شرعياً ولكن أيضاً مادام ذلك الرجل لم يوجد كزوج شرعي.. فإن الرجل طالما وجد وتوفرت لديه شروطها فإن صفة الزوج الشرعي يمكن أن تتنازل عنها وهو ما وصلت إليه عند هذا الموقف وبخلعها ملابس الزقاق تكون قد نسفت حياة بأكملها على طريق لحياة جديدة بدايتها تلك الملابس وكأنها خلعت جلدها القديم الذي كان حامياً لها طوال عمرها المنصرم.. ورغم أنها تنفذ ما أرادته وهو انفرادها لليلتها في حجرة بعيداً عن فرج.. وتنازله هذا الشرف مؤقتاً.. إلا أنه أيضاً كان في طريقه لمسح معالم الماضي بكل أبعاده وكانت تلك الملابس الذي هيأها لها بداية حتى أنه يضيف في الصباح التالي مباشرة خلع الاسم التي ولدت به وعايشها حتى تلك اللحظة حتى بعد أن بدلت ملابسها.. وأصبح تيتي هو البديل لحميدة.. تيتي هو الحاضر والمستقبل الذي حطم حميدة، الماضي الذي حكم عليه بالفناء ولم تعترض حميدة تماماً كما لم تعترض على خلع ملابسها القديمة.. كل ما فعلت هو ترديد الاسم تيتي تعقبه علامة تعجب..

- تيتي!

ويقول لها فرج وهو يقوم بتقبيل راحتيها..

- هذا اسمك الجديد، فاحفظيه عن ظهر قلب.. وانسي حميدة فلم يعد لها وجود! ليس الاسم يا محبوبتي بالشيء التافه لا يقام له وزن.. هو بالأحرى كل شيء وما الدنيا - لو تعلمين - إلا أسماء.. (٢١٣)

وهكذا كانت الملابس الجديدة والاسم الذي لا يمت لاسمها بعلاقة هما بمثابة الجدار الشاهق الذي فصل بين حياتين بكل المقاييس وأصبحت حميدة أو تيتي تقف على أرض جديدة بكل ما تحوي..

إن حميدة لم تكن ترفض هذا الواقع الجديد بعد ما ملت واقعها الذي استغرقت حوالي عشرين عاماً لم ترض عنه وكان تمردها نابعا من المحاولات المستمرة للصعود إلى أعلى.. لم تكن تطمع في حياة القصور ولكنها على الأقل كانت تريد التغيير.. نقلة تنتشلها من الزقاق حتى لو كان في الصنادقية أو ما يجاورها.. المهم أن تهجر هذا المكان الذي لم يحل لها بكل ما فيه.. وإذا كانت قد ارتضت فرج كمخلص لها فإنها لم تكن تهتم بحياتها معه كزوجة لأن الحب لم يكن طرفاً ثالثا.. ولكن الطرف الثالث كان تغيير المكان.. بل التغيير الشامل ولو بالقدر البسيط ولكنه في النهاية تغيير.. وكذلك موافقتها على السيد سليم وإهمالها لفرج وبكل ما ارتبطت معه نظير التغيير أيضاً ولسببين أولهما أن السيد سليم سوف ينفذ وعده في اللحظة الراهنة وليس بعد سنين أو أكثر وربما يعود يخفي حنين.. ثانيهما أن السيد سليم سوف يكون التغيير من خلاله بصورة واضحة وأكثر اعتلاء مما سيحققه عباس إذن فإن حميدة حينما كانت ترفض وتتطلع إلى الأحسن لم يكن في حسبانها سوى من يحقق لها ذلك دون الاهتمام بالمواصفات الأخرى وإذا كان عباس قد غادر الزقاق وأمامه سنة أو أكثر وربما يعود خاوياً وربما لا يعود أبداً فإن ذلك يعد من قبيل انتظار المجهول وربما يحضر وغالباً لا وجود له.. ثم أن ما أصاب السيد سليم كان بمثابة تحطيم أمل راودها لليلة واحدة وانتهى.. والموقف كما هو.. لا جديد.. وهي تتعجل التغيير. إذن فالرجل الثالث بما يسر لها وقدم لها من مغريات في لحظتها لم تكن معه أن ترفض.. كل ما في الأمر أنها استعملت هوايتها المفضلة في أن تكون هي ذات اليد العليا.. وإذا لم توفق في سابق عهدها مع فرج.. إلا أن الأخير يحقق لها هذه الهواية من قبيل تهدئة اللعب معها حتى

يمكنه اقتيادها للنهاية دون أن تنسحب.. وقد كان.. وتركها تنفذ رغبتها في قضاء ليلتها الأولى والأخيرة بمفردها.. ولكنه بعد أن سلبها نصف ماضيها بانتزاع رداء الزقاق.. ثم يقضي على النصف الآخر وهو الأهم اسمها المقترن بعشرين سنة في الزقاق يمحوه بلفظ جديد "تيتي" وقد كان.. وهنا تكون حميدة قد رمت الماضي بكل ما فيه وراء ظهرها وارتضت حياة الحاضر الذي لم تكن تدري ما وراءه.. ولكن لا يهم كثيراً طالما وقفت على أرض نظيفة ووقع بصرها على كل شيء راقها فالفارق في كل شيء كبير جداً..

إذن فقد انتهى ماضي الزقاق بلا رجعة ووصل الخط الدرامي إلى نهايته ولكنه لم ينحدر.. بل ظل ساكناً لاستمرار حركة الحياة بلا توقف مع حميدة التي بدأت خطاً درامياً آخر من أوله ولكن الإيقاع كان سريعاً لا يتناسب مع إيقاع زقاق المدق الذي لم تكن حركته واضحة.. وقد اكتسبت حميدة في أقل من يوم واحد ثوباً واسماً دون تردد بل أنها لم تكن ترفض حتى بعد ما قادها فرج إلى مدرسته الخاصة بتعليم الرقص بنوعيه ورأت ما رأت ولم تكن تحفظها سوى سؤالها لفرج عن مصيرها هل سيكون مثل هؤلاء الراقصات ولم تتلق إجابة شافية بل كانت مقتضبة حقق لها الرجل بعضاً من كبريائها حيث جعلها تختار دون ضغط وهذا الاختيار أو الاستسلام.. وقد اختارت بعدم رفضها أو حتى إقامة حوار بينها وبين فرج.. والخط يتصاعد بسرعة.. ويكشف فرج عن أصالته الوضيعة في أول حوار بينه وبين نفسه قبل أن يسلب حميدة عفافها الذي تنازل عنه لشخص آخر مقابل خمسين جنيهاً.. إذن فرج خلع رداء اللعب وتعامل برداء الحقيقة.. حقيقة ذاته دون أية إضافات حيث يقول:

- مهلا.. مهلا.. إن الضابط الأمريكي يدفع خمسين جنيهاً عن طيب خاطر ثمنا لعذراء! (٢٢١)

لقد استسلمت حميدة بإرادتها وسلمت قيادتها إلى ذلك الرجل الذي فتح لها عالماً جديداً مغايراً تماماً لعالم الزقاق.. ارتضت أن تفعل أي شيء يحافظ على تلك الحياة.. راقصة أو دونها لا يهم.. ومع ذلك اعدت نفسها للتحول الأكبر الذي سوف تجد في تحقيقه أرضاً صلبة يمكنها أن تقف عليها دون أية تحفظات.. وفي

نفس اللحظة سوف تطفئ ظمأ النشوة التي سبق أن مارستها مع فرج ومن قبله عباس الحلو.. ولكنها كانت نشوة عابرة في كلتا الحالتين لظروف الموقف سواء خوفاً من أن أحداً يكشف أمرها فتكون الفضيحة أو أن تقع في المحظور وهي مازالت من أهل الزقاق فلا تأمل العاقبة.. أي أنها كانت تستقبل تلك النشوة الهامشية تحت وطأة الخوف.. أما الآن وهي في هذا العالم الصغير جواً وهي الحجرة المغلقة تماماً كالزقاق ولكن شتان الفروق.. فهي إذن قد استعدت وأقامت حساباتها بدقة واتفقت مع نفسها أن الثمن لابد أن يسدد الآن وفوراً وسوف تنال من وراء ذلك مزيداً من النشوة ولكن بلا تحفظ فلا ثمة خوف يمكن أن تخشاه.. استعدت بل وتنتظر لحظة المواجهة والخطوة لابد أن تكون هذه المرة من الطرف الآخر فرج.. إنها كانت تتمنى فيما سبق أن تكون الخطوة الأولى صادرة منها.. ولكن ذلك لم يحدث منذ اللقاء الأول وهذا ما كان يؤرقها.. وإنما كان هو المتصدر وهي المطيعة رغما عنها.. ولكن في هذا الموقف لم تكن ترضى أن تكون المبادرة منها.. فهذا يحط من كرامتها التي لم تعد لها وزن.. ولكن يمكن أن تدمرها كأنثى على الأقل.. ولذلك فهي تنتظر لحظة الهجوم منه.. ورغم أنه كان على وشك الإقدام إلا أن خمسين جنيهاً كانت حائلة بين تنفيذ الرغبة وعدم تحقيقها.. وفضل أن يكون انتزاع العفاف بواسطة ذلك الضابط مقابل المبلغ المنتظر وهذا لم يخطر على فكر حميدة أو تيتي ولكنها كانت تريد أن تمنحه شرف رفعها إلى مصاف الساقطات حتى يكون له الفضل على طول الخط.. ولكنه لم يتقدم ويكون رد الفعل منها الاشتباك معه ومحاولة الانتقام الذي يصل إلى الصفعة من يدها وكأنها تحاول أن تضع يدها على نقطة ضعفه.. ولكنه يرد لها الصاع صاعين وبأشد مما فعلت لتستسلم له نهائياً بعد ما يكون قد وصل إلى ترويضها.

وتستجيب حميدة لنداء الشهوة التي يعيشها عن قرب وتقطع خطوات في طريق العربدة مع فرج وغيره من الإنجليز وما شابههم مقابل عطاء سخي يذهب إلى الرجل ليجود عليها ببعض منه ولكنه يعد كثيراً بالقياس لماض قريب لم تكن ترى أو تسمع عن كل ما يحدث شيئاً، جرفها تيار الرذيلة لعمق يصعب معه العودة مهما كانت الوسيلة وعرفت ذلك ورغم أنها بدأت تمل هذه الحياة سريعاً.. إلا أنها

لم تكن ترى ضوءاً ضئيلاً يمكن أن تهتدي به.. فهذه حياتها قد بدأت وقطعت منها شوطاً ولابد لها أن تستمر على الأقل مادام فرج هذا أمامها.. ولو أنها كانت قد بدأت تقترب منه بمعاشرتها وودت أن تكون له زوجة.. ولكن ذلك الرجل لم يكن أبداً ممن يؤمن بهذا الارتباط الذي ظنه قد بطل مفعوله بين الناس جميعاً وهذا ما جعلها تصل إلى مرحلة اليأس برغم ما أصبح تحت يدها من مجوهرات وثياب.

إن خط حياة حميدة منذ تغير تصاعد بسرعة مذهلة حينما تعايشت مع ذلك الواقع الجديد في بدايته راضية منبهرة بكل ما يقع تحت يديها من حلي أو مال وما تراه من أناس وما تشرب من خمر وما تتحلى به من أصباغ.. جرفها ذلك التيار بسرعة حتى وصلت إلى نقطة تقترب من الذروة ويصعب الانحدار قبل بلوغها.. وعلى ذلك فهي حينما تعرض على فرج مسألة الزواج كانت تريد أن يكون الانحدار بواسطته.. فهو الذي أوصلها إلى تلك النقطة التي لا رجعة منها مادام هو أمامها ويريد لها أن تستمر أو على الأقل أن تحافظ على ذلك المكان الذي منه يجمع ثروات.. فهذا أيضاً ولا أحد غيره من بيده العودة بها إلى نقطة البداية مرة أخرى تحت حمايته وسوف تكون شريكة لحياته.. وهذا ما رفضه فرج وينفذه ليصل إلى معنى لا يرضيها.. ولترضى أخيراً بما أصابها وما وصلت إليه بإرادتها دون أن يضغط عليها أحد.. بل أنها باعت رجلاً فاضلاً بثمن بخس ولكن لا فائدة ترجى..

هذا كان موقف حميدة من فرج ومن حياتها التي وصلت إليها ليست مرغمة ولكن بإرادتها.. حتى ولو كانت تلك الإرادة تحت ضغط عوامل عدة منها النشأة الشيطانية والفقر الدائم والجهل المتولد من ذلك الفقر ثم التطلع إلى حياة لم تكن أهلاً لها.. ولذلك فهي تسقط عند أول تجربة حقيقية في هوة سحيقة..

ولتتطور الأحداث وليتحرك الخط الذي ثبت عند نقطة.. ولكنه يتحرك ليس إلى الذروة.. ولكنه يتحرك رأسياً.. أو عرضياً ليتسع ذلك الخط وذلك بلقاء عباس الحلو.. لقد عاد من بلاد الغربة آملاً أن يتم فرحته بارتباطه بها.. ولكنه يفقدها.. ويبحث عنها ولا يجدها إلا مصادفة.. ويتحاورا.. الهجوم منه.. والهروب منها.. والضغط المتلاحق الذي لا يمله يجعلها تفيق وتعترف له بما كان يعرف ومن منطلق

اليأس الذي أصابها من الاستمرار في هذا الخط الأعوج والإحباط الذي اعترف فرج به أمامها.. ترى في عباس، خلاصها ولكنها في نفس الوقت تنظر إليه نظرة جديدة بعد أن جربت رجلا آخرا بعث بها إلى هذه الحالة.. والوعد الذي سبق أن قطعه عباس على نفسه لكي يهيئ لها حياة وإن تكن أقل كثيراً من هذه التي تحياها.. إلا أن الفارق في النهاية بين الحياتين كبير.. بل إن الفارق لكبير جداً بين هذه الحياة التي تحياها وبين حياة الزقاق نفسه..

لقد كانت حميدة بتجاربها التي تعددت بعد مزاولة ذلك النشاط أذكى من أن تجعل هذه الفرصة تمر دون أن تستثمرها لأكثر من وجه.. فهي باعترافها لعباس عن ذلك الرجل الذي كان سبباً في انحدارها.. وكذلك سبباً في هدم سعادته هو.. كانت له أكثر من فائدة بالنسبة لها.. فبهذا الاعتراف تكون قد دافعت عن نفسها ولو بقدر بسيط حيث أنها لم تسع إلى هذا الطريق بمفردها ولكن خدعت وهذا الرجل كان خادعها.. بالإضافة إلى إحساسها بأن عباس يتكلم بصدق ويعي ما يقول ويمكن أن ينفذ.. فهي قد رأت أن عباس يمكنه أن يفعل شيئاً ذا خطورة وتكون نتيجته إنقاذها مما هي فيه.. وهذا الشيء لن يكون سوى الانتقام من فرج.. ولكن كيف.. وهي لا تريد لعباس نهاية مؤلمة وفي نفس الوقت تتخلص من ذلك الرجل.. إن عباس يريد أن يقتل.. وحميدة تريد أن تتخلص من فرج ولكن بوسيلة أخرى.. وذلك في الحوار الذي استمر طويلاً وبلغ معه عباس قمة انفعاله:

أجاب في جنون اليأس قائلاً

- سأحطم رأس القواد الوضيع..

وترد حميدة بعدما تقلب الأمور على أكثر من وجه:

- لا تبلغن بك الرغبة في الانتقام منه حد الاستهانة بحياتك! اضربه.. افضحه.. جره إلى القسم فيكون فيه القضاء عليه وعلى جرائمه.. (٢٦٨)

نستخلص من هذا الحوار والموقف معاً كثافة اليأس الذي وصلت إليه حميدة بعد تجربتها الجديدة التي لم تحقق لها سوى شق واحد مما كانت تصبو إليه وهو الوجه الجديد الظاهري.. أما الباطن فقد كان خراباً ودماراً ملت استمراره حتى

أنها تفكر في الإقلاع عنه برغبتها في بترة بزواجها من فرج.. ولكن الأخير حينما ينفذ لها ذلك الحلم لكي ينتهي بلا شيء فإن آخر أمل قد تبخر وأمامها الاستمرار في حياة الظلام.. بعدما مات الأمل والانسحاب أصبح مستحيلاً طالما أن فرج باق وقد عرفت عنه كل شيء.. والى هذه اللحظة لم تكن تفكر في شيء فلا جدوى في أي حل يمكن أن تتوصل إليه.. الطرق كلها مسدودة ولا نور إلا في طريقها الوحيد الذي يدر عليها المال.. المال الذي يصيب فرج منه الجزء الأكبر ويبقى لها القليل ومع ذلك فهو كثير بالقياس لخواء الماضي في الزقاق.. فقد جمعت منه الكثير وامتلكت من الذهب ما يقدر بثمن غال.. ومع كل ذلك فهي تريد الخلاص ولكن من أي طريق يمكن أن تجده.. لا خلاص وهذه الحياة ستكون هي مصيرها إلى النهاية.. أية نهاية.. لم تحسب لذلك حساباً.. وعلى ذلك فهي تهرب من واقعها ولو لساعات قليلة تجدد فيها بعضاً مما تفقده في الشراب والرقص وما إلى ذلك من أشياء أخرى..

إذن فلقاؤها بعباس ولو أنه أحدث لها بعضاً من الضيق.. فذلك في اللحظة الأولى لهول المفاجأة غير المنتظرة حيث كان ذلك الرجل هو الماضي الذي من أجله وصلت إلى هذه النتيجة.. الماضي الذي لفظته وتحدت العالم من أجل قبره بلا عودة آملة أن تجد بيتاً يحقق لها حياة أفضل بعيداً عن مثل هذا الواقع الذي عاشت ومازالت وإذا كانت قد فكرت من قبل في ترك هذا الواقع ولم تجد مجيباً من فرج وهو الرجل الوحيد الذي آمنت له وبه.. فإن ثمة فرصة أخرى أصبحت بين يديها.. فرصة لن تجد سواها إذا ضاعت.. وعلى ذلك تتقمص دور الضحية أمام من أحبها إلى درجة الجنون.. وها هو يتمثل أمامها في صورة المنتقم الجبار الذي يريد أن يقتل من دمر مستقبله وأحبط مخططه الذي وضعه لتنفيذ حلم كان قاب قوسين أو أدنى وهو الذي ارتبط بها رسمياً وأمام شهود عيان وبفاتحة الكتاب وصينية بسبوسة وكانت الموافقة من كل الأطراف ولم يبق إلا استحضار المال الذي يحقق به تلك السعادة.. وها هو قد حصل على جزء منه بل واشترى خاتم الخطوبة لكي تكون علنية أمام الزقاق تمهيداً لتركه إلى منطقة أخرى تحلو للخطيبة.. ولكن كل ذلك ضاع بواسطة هذا الرجل الذي حرمه من حميدة.. ليس

فقط بل حطمها كذلك.. إذن فلا مقابل أمام كل ذلك أقل من الموت لهذا الرجل.. ويعلنها صراحة أمام حميدة التي وجدت في هذا الاعتراف منقذاً لها ومنفذا لطريق خلاصها.. إنها لم تكن تحب عباس.. ولكنها الآن وهي أيضاً لا تحبه أيضاً فهي ترضى منه أن يكون مخلصاً.. ثم أنها لا ترضى أن يكون ثمن هذا الخلاص هلاكه.. فهي تحمل له عرفاناً بما سيقدم عليه.. وحريتها وتركها هذا الطريق إذا جاء على يديه فسوف يكون قطعاً ذا فضل عليها.. فلا أقل من أن تحتفظ له بحياته لكي يعيشها كما يحلو له.. وفي نفس الوقت تقطع أمامه عهداً بأنها سوف تختفي من حياته وهي التي تعلم عن ذلك الصنف من الرجال كم أن كرامته أغلى لديه من الحب.. نعم فهي تعلم تماماً أنه يحب.. وليس حباً عادياً.. وإنما حب وصل قيمته هجر الزقاق.. ثم تخليه عن دكانه الذي كان يعده ملكه الغالي في تلك الحياة.. ثم اللجوء إلى العمل عند الإنجليز وهذا ما لم يفكر فيه مطلقاً.. ولكنه أقدم على كل ذلك دفعة واحدة من أجلها.. من أجل حبها.. من أجل أن يحقق لها حلمها ومع ذلك فكل ذلك لم يكن يساوي سقطتها التي وصلت إليها.. وهي هنا تحله من أي وعد قطعه على نفسه بالنسبة إليها.. ولكن يكفي أن يخلصها كإحدى فتيات الزقاق..

إذن فحميدة تفكر بمنطق المصلحة المزدوجة والخلاص الذي لا يضر المخلص.. هي لا تريد القتل الذي سوف يحقق لها وحدها الخلاص والاختيار الأفضل دون خوف أو رقيب يمكن أن تحسب له حساباً.. ولكنه في نفس الوقت سوف يحطم مستقبل ذلك المخلص الذي لم يكن إلا المحب القديم الذي ضحى بكل شيء من أجلها هي.. ثم أنه أيضاً كان أحد أفراد الزقاق رغم أنها تكرهه بمن فيه.. إلا أن ذلك كان فيما مضى قبل أن تسقط في هذا الجب الملعون.. وهي في نفس الوقت تخشى عاقبة المصير له.

وعلى ذلك فهي تحثه وقد أضاء لها طريق أمل يمكن أن يحقق لها بغيتها وهي البحث عن حياة نظيفة بمال قذر ولكن هذا ما بوسعها.. إنها لا تريد القتل حفاظاً على حياة عباس وهي هنا صادقة.. فهل يمكن بها أن ترضى لمن ينقذ حياتها من مستنقع الوباء الذي زجت فيه بأن تكون نهايته الدمار..؟! وعلى ذلك

توضح حميدة لعباس الوسائل البديلة للقتل.. وهي وسائل تؤثر في فرج دون أن يتأثر عباس بنتائجها الضرب.. وهو وسيلة إهانة.. ثم الفضيحة وهي أيضاً إهانة.. وأخيرا باب العدالة وهي الشرطة التي يمكن أن يخرج منها إلى السجن بعد محاكمة وتكون حينئذ قد تخلصت منه.. ليس نهائياً ولكن لفترة طالت أم قصرت فيمكنها الهروب بعيداً عن ذلك المكان.. وفي نفس الوقت يكون عباس في مأمن من أي شر يمكن أن يصيبه..

هكذا كانت عقلية حميدة التي وزنت الأمور في كلمات وهي تحدد الهدف الذي يصيب دون أن تكون له رد فعل.. ثم أنها تعطي لعباس فرصة الانتقام لشرف إحدى سكان زقاقه الميمون.. ثم وأخيراً تصل إلى الخلاص من هذه الحياة التي أيقنت أن نهايتها سوف تكون من داخلها.. ولكن القدر هو وحده الذي ساق لها عباس لكي يكون المخلص المنتقم لشرف زقاق المدق..

وعلى هذا الأساس تم الاتفاق بين حميدة وعباس وكانت صادقة وكان جاداً في عهده وكان يوم الأحد موعداً للتنفيذ..

وإذا كانت حميدة قد خانت هذا العهد.. وهذا من وجهة نظر عباس الذي اصطحب حسين كرشة معه ليطلعه على أخته في الرضاعة ولكي يكتشف ذلك المكان الذي سيلتقي فيه مع فرج لكي ينفذ ما وعد به.. ويصل عباس ومعه حسين.. وتقع عينه على حميدة في وضع لم يستطع احتماله.. فهي تجلس حول مجموعة من الجنود في وضع شاذ.. إذن فهذه حميدة الذي ظن أنها ضحية ذلك الرجل فرج.. ثم يكون الحكم وليد اللحظة أنها ليست ضحية.. إنها الخيانة بكامل هيئاتها.. والقتل الذي كان لفرج هي أحق به منه.. إذن فليكن تنفيذه اللحظة..

إن عباس لم يكشف اللغز بأكمله.. أعطته حميدة جزءاً منه.. أو أساسه أما البقية الباقية والتي لا تشكل خطورة بالنسبة لها حجبتها عنه لكي لا يثقل بأعبائها.. فرج واحد يمكن التصدي له ويمكن أن ينتزع الحق منه على أيدي رجال الشرطة.. أما هؤلاء الجنود فإنهم فوق القانون وهم جماعة لا حصر لها فهل يمكن لعباس أو للزقاق مكتملاً أن يتصدى لهم؟! إن حميدة كانت هي الخائنة والمتهمة

أمام عباس في لحظة لم يكن قد خطط لها جيداً.. فهو لم يأت ليراها.. لم يكن هذا وارد في ذهنه.. لكنه أتى لاكتشاف المكان..

ثم أن حميدة حينما أعطته وعداً بيوم محدد لم يكن يفطن بذهنها أن عباس يمكن أن يفاجئها في أية لحظة كما فعل.. وهي إذا كانت قد مارست عملها المعتاد وشاهدها عباس في هذه الجلسة الشاذة فإن ذلك لم يكن إلا تكراراً لحياة عاشتها وعايشتها طيلة المدة السابقة ولا جديد في ذلك ولا غريب من هذا التصرف المعاد في كل يوم وليلة..

ولكن القدر حينما يريد أن ينفذ إرادته فإن الزمن يتقدم أو يتأخر حسبما شاء ذلك القدر.. فيكون مجيء عباس قبل الموعد لكي يحفظ لفرج حياته وهيبته.. ولكي يفقد هو نفسه حياته على أيدي هؤلاء الجنود ثمناً لتعديه على حميدة وإحداثه جروحاً متعددة لها ولتبقى حميدة كما هي.. أو أقل كثيراً مما هي بعد أن أصيبت فلن تحتفظ بجمالها الذي تشوه.. وليبقى فرج دون أن يهزه ما حدث وسوف يكتشف حميدة أخرى..

إن الكاتب قد جسد في شخصية حميدة في زقاق المدق وأودع فيها ازدواجية الطبيعة البشرية ولكن بنسب متفاوة وضح من خلالها فردية التطلع الناتج عن الحرمان نتيجة الفقر.. وهذه الصفة إذا مزجت بالنشأة الأولى الذي كان فيها الجهل أساساً لتطورها.. فإن ذلك يعني طموحاً بلا حساب منطقي يحكمه.. يسانده جمالها الذي وهبته الطبيعة لها، كل ذلك جعلها تقف على أرض رخوة لكي تسقط عند أول تجربة بإرادتها طمعاً في التحول الذي انتظرته طويلاً ولم تكن على استعداد أن تنتظر أبعد من ذلك وهو انتظارها لعباس الذي كان صادقاً في وعده.. لكنها أرادت أن تقتنص فرصتها السانحة لعل الانتظار لا يجدي..

وعلى ذلك كان الصراع الناتج من داخل حميدة سببه التغيير إلى الأحسن وسط طبقة جمعت أسباب الحياة ولم تترك لسواها شيئاً.. وهذا الشيء هو الذي كانت حميدة تسعى إليه حتى وجدته ولكن ممزوجاً بالضياع الذي لم تستطع أن تعايشه طويلاً فأرادت أن تغيره مرة ثانية ولكن فرج لم يمكنها من تحقيق هذا

الهدف فكان عباس مرة أخرى المنقذ لها ولكن الحسابات لم تكن دقيقة والقدر لم يكن بجانبها لتنتهي المأساة دون أدنى تغيير أو نقل إذا كان ثمة تغيير فقد وصل إلى الأدنى.. وهكذا كانت حميدة ضحية نشأة معدمة ناتجة من مجتمع طبقي احتكر الحياة لنفسه ولم يترك منها سوى أشواكها لكثير من الناس ومن بينهم الزقاق الذي جمع داخله صنفاً من هؤلاء التعساء.

(٢) بدايـة ونهايـة

إذا كان نجيب محفوظ قد اختار في زقاق المدق مكاناً يحمل اسم روايته فهو أيضاً رمز لذلك المكان للعالم الصغير ثم الكبير.. أي أن ذلك الزقاق يمكن أن يكون هو نفسه ويمكن أن تتسع رقعته لتشتمل القاهرة ويتجاوزها لتشمل مصر كلها.. وإذا اتسعت الرقعة أكثر من ذلك فإنه العالم كله هو هذا الزقاق.. وعلى ذلك فهو رمز للعالم واعتبره بعض النقاد البطل الأساسي في هذه الرواية ذلك المكان بمن فيه.. ولكننا نتعرض هنا في هذه الدراسة لشخصية نسائية واحدة حملت على كاهلها عبء الأحداث وحركتها ووصلت معها وبها إلى النهاية التي أراد الكاتب أن يبرزها ولم تكن النهاية المطلقة.. ولكنها نهاية حقبة زمنية وهي هنا أيضاً رمزٌ للزمن المطلق في حدث من أيام أو شهور زقاق المدق وهو شريحة لا يمكن أن يحدث في الزمن اللانهائي..

واستمراراً لدور المرأة التي تتحمل في روايات نجيب محفوظ مسئولية الصرع ودفع الأحداث في مختلف الاتجاهات بعد حميدة في زقاق المدق تبرز شخصية "نفسية" في رواية بداية ونهاية والتي سوف نتتبعها منذ البداية التي أرادها محفوظ وحتى النهاية التي وقف عندها ولم تكن أيضاً النهاية المطلقة.. ولم تكن البداية هي البداية الأولى.. ولكن الكاتب اقتطع شريحة من الحياة والواقع والزمن.. ما بين نقطتين بادئاً ومنتهياً..

وعلى نفس الخط السابق والذي قطعته حميدة في زقاق المدق يتكرر الخط في بداية ونهاية مع نفيسة ولكن بشيء من الفوارق الملحوظة رغم أن صفة الفقر كانت عاملاً مشتركاً.. والفقر هنا لم يكن متأصلاً في عائلة نفيسة كما كان في

زقاق حميدة.. ولكن الكاتب يبدأ من هذه النقطة.. ويصل بتلك الفتاة مع استمرار الأحداث إلى طريق مسدود كما هيأه لحميدة..

ونجيب محفوظ نفسه يرد على أحد النقاد في سؤاله عن اختياره لشخصية البغي في أعماله بقوله:

"هذا الحكم لا يقوم على استقراء دقيق.. أكثر ما يمكن أن يقال أن البغي في كثير من الأحايين - في أدبي - تزخر بعواطف إنسانية ولا غرابة في ذلك.. فالبغي في النهاية إنسانة.. بل هي إنسانة مطحونة بالآلام والهوان رغم جميع المظاهر.. وهو وضع يتمخض أحياناً عن أنفس حاقدة وأحياناً عن أنفس غاية في الأسى والإنسانية". (٩٧)

وهذا الاعتراف أو هذه الإجابة عن سؤال الناقد كانت تشمل المرأة البغي في الحالة التي تناولت هذا الصنف من البشر ابتداء من الثلاثة (بين القصرين والسكرية وقصر الشوق.. ثم الشحاذ وغيرها) وبتركيز أشمل تكون هذه المرأة في تلك الأعمال التي تتعرض وكانت البداية زقاق المدق.. ثم في هذا العمل بداية ونهاية تبرز كما ذكرنا شخصية نفيسة الذي يصفها الكاتب بقوله:

"كان لها هذا الوجه البيضاوي النحيل والأنف القصير الغليظ والذقن المدبب.. إلى شحوب في البشرة.. واحدباب قليل في أعلى الظهر كانت بعيدة عن الوسامة وأدنى إلى الدمامة". (١٧)

إذن فهذه الفتاة بأبعادها الدقيقة التي رسم نجيب محفوظ منها صورة أجاد إبراز أدق خطوطها ووضعها في إطار يتناسب وتكوينها..

وقد تفوق في مزج الألوان وانتقائها بدقة لتكون الصورة في النهاية أو في البداية ناطقة منسجمة مع تصرفاتها مستقبلاً إذا ما أضيف إليها فقد الأب الذي كان للأسرة كلها بمثابة الحصن الذي ينبع منه الأمن والأمان منذ النشأة الأولى وحتى لحظة وداعه الدنيا..

وإذا كان الكاتب قد أعطى الوصف دقة متناهية لشكل الفتاة وهيئاتها فلا يجب أن نغفل الجانب الآخر من حياتها المشتركة مع العائلة التي مجموعها خمسة

أفراد.. الأم وهي تماثلها في الشكل إذا استثنينا العمر.. ثم الأب الذي لم يكن في هذا التعداد لموته.. إلا أنه أورث أبناءه الذكور الثلاثة الشكل الذي كان عليه وهو الذي يختلف كثيراً جداً عن شكل الأم التي أودعت ابنتها المظهر.. إذن فالشكل ما بين الأخوة الثلاثة الذكور والذين كانت هيئاتهم متقاربة في الشكل الحسن وكانت نفيسة وهي الأنثى التي تتخذ الشكل المغاير لهم وكأن الطبيعة لم تعدل في هذا الوضع ولكنه في النهاية القدر الذي يعطي بحكمة لا يعقلها البشر إلا بعد فوات الأوان ولم تكن نفيسة برغم الشكل بالفتاة المعقدة أو المنطوية..

فإذا كان القدر قد حرمها جمال الخَلق.. فإن جمال الخُلق كان شيمة لها حيث إن النشأة الأولى كان لها دور في تكوين هذه الفضيلة والتي ربما ورثتها عن أمها تماماً كما ورثت دمامة الخلق.. إذن فالفتاة إلى هذه اللحظة والتي سبقتها سنوات تصل إلى الثالثة والعشرين اتخذها الكاتب بداية لها بل وللأسرة مكتملة بعد موت الأب..

إذن فالأسرة قبل ذلك كانت تعيش في بحبوحة من العيش بالقياس للكثير من ذلك الحي "شبرا" الذي يجمع داخله طبقات متناقضة منها البيك الذي يعيش في ميسرة بارزة من الحياة في كل شيء ابتداء من قصره الكبير وحتى سيارته وملابسه الفخمة.. إلى بعض الرعاع الذين لم يكن يصلهم أقل القليل.. إلى متوسطي الحال وإلى غير ذلك.. كان الحي يجمعهم في تناسق بين وقد جعل لكل حدوده الذي لا يمكن أن يتعداها..

وعلى ذلك فالأسرة ومنهم نفيسة لم تكن تحمل للحياة أية أعباء.. إلى أن مات الأب تاركاً وراءه أسرة بدون إيراد يذكر سوى المعاش الذي لم يكن متيسراً لهم قبل شهور.. وعلى ذلك فالأسرة تناقش أمورا من هذا المنطلق.. ويقول كل رأيه.. ولم يكن رأي نفيسة إلا كلاماً ملؤه الحكمة والإيمان فهي تقول:

- لا أحد يموت جوعاً في هذه الدنيا.. وسيأخذ الله بيدنا.. أما المصيبة التي تجل عن العزاء فهي موته هو "أسفي عليك يا بابا".. (٢١،٢٠).

إن نفيسة في هذا الحوار والذي يعد البداية كما أشار الكاتب "بداية حياة

لأسرة مات عائلها دون أن يترك لها ما يستمرون به.. ورغم أن الأم تعترف بصراحة بخطورة الموقف الغامض ووقوف الأخوان دون إبداء رأي.. إلا أن الفتاة تلقي بما لديها من حوار لكي تخفف وقع الكارثة على الأسرة وتخص هنا أخويها الذكور وهما في مرحلة التعليم الثانوية ولا تريد أن تجعل هذا الموقف يؤثر على نفسيتهما فكان هذا التصريح منها بمثابة ريح باردة في حر صيف حارق على الأقل في نفس الأخوين.. إذن فإن نفيسة من هذه البداية تحمل داخلها رصيد تربية أخلاقية لم تدخلها شوائب حرمان أو ما شابه ذلك فهي ترى الدنيا برغم موت الأب.. تراها كسابق عهدها بها ولم تدرك في اللحظة الأبعاد الحقيقية لتلك المصيبة كما وعتها الأم.. لم يكن الواقع الذي استمر معها عمرها الماضي قد تغير.. فهي في أول عهدها بحياة البداية.. رصيدها من كل شيء مازال بكامله.. لم تنقص المواقف أو الظروف منه شيئاً.. ولكن من يعرف ما تدخره الأيام.. لم تكن نفيسة تتأثر بشيء سوى بفقد والدها الذي كان يمثل لها أشياء كثيرة منها وهو الأهم إعطائها الأمل في الحياة بدون جمال الشكل ورغم أنها لم تكن مقتنعة بهذه المجاملة.. إلا أنها كانت تتقبلها وتعكس معناها في دعاباتها التي لم تكن تنقطع.. سواء مع أمها أو أخواتها..

إذن فهي تنظر إلى الحياة بعين ملؤها الرضا والأمل حتى لو لم يأت.. كان لابد للأحداث أن تستمر.. وأن تتطور لأن الحياة لم تنته.. ولكن ثمة تغير حدث.. موت الأب.. انقطاع المورد.. استمرار الحياة.. البحث عن مورد آخر.. تعليم الأخوين.. تعطل الأخ الأكبر عن مزاولة العمل والأم والأخت حيال ذلك هما العقل المفكر في حل ذلك اللغز اللعين.. ثم يكون نصيب نفيسة أمام كل ذلك التغير الوحيد في الأسرة.. ذلك التغير الذي كان إلى الأسوأ.. فهي التي يقع عليها الدور لإغاثة الأسرة عن طريق امتهانها لحرفة الخياطة التي كانت تتخذ منها هواية لا أكثر على ثمن هذه المجاملات مستقبلاً كي تكون نواة لاستمرار الحياة وهذا التحول.

هذا كان مبعثه تفكير الأم التي لم تر أمامها منقذاً سوى هذه الفكرة وهي لا تدري أنها تضع أول مسمار في بخس الابنة.. حرفة الخياطة للابنة التي كانت فيما

مضى معززة وخطواتها محدودة إن وجدت.. ولكن الأوضاع اختلفت.. وأمام الواقع الراهن لم تكن نفيسة تمتنع.. توافق رغماً عنها ولكنها مضطرة فالقروش القليلة خير من لا شيء..

وكانت البداية المبكرة وقد اتخذت من البيت مكاناً لتنفيذ ذلك الأمر بداية من صاحبة البيت التي كانت تبذل جهدها لمساعدة تلك الأسرة وهي أيضاً لا تدري أنها تسوق الابنة إلى نهايتها من هذه البداية.. فكانت أول نقود تصل إلى يديها من هذه المرأة صاحبة البيت الست زينب والتي لم تكتفِ بالقليل الذي يصل إليهم.. فكان تفكيرها إيجاد نطاق أوسع منها.. وكانت عروس ولابد أن لديها من الثياب الكثير.. وكانت التوصية وكان القبول.. لتخرج نفسية للمرة الأولى لخارج البيت بغية العمل.. ولن يعتر أحد سواء الأم أو الأخوة الرجال مادموا جميعاً في أمس الحاجة إلى القليل الذي سوف تزودهم به.. إذن فقد عرفت قدماها الطريق خارج العطفة.. بمنطقة نصر الله المغلقة والتي تشبه الزقاق.. أيضاً خرجت نفيسة لكي تكتشف الكثير.. اكتشافها لبيت العروس ومقارنته ببيتهم في الوقت الراهن بعد أن صار خاوياً ببيع محتوياته لسد حاجاتهم من المأكل.. ثم موقعه في شارع شبرا.. وليس في عطفة.. ثم رؤيتها لفتاة تصغرها سناً ولكنها تفوقها شكلاً.. وأخيرا لقاء الفتاة بخطيبها الشاب في موقف رومانسي وهي في نفس الموقف مجرد خيّاطة كل ذلك كان بداية لإقامة صراع داخلي لنفيسة..

إن هذا الموقف كان بداية أيضاً لاكتشاف نفيسة عالماً حركة بداخلها غريزة الأنوثة التي لا تقل شأناً عن أي فتاة مهما علا جمالها فبرغم دمامة الشكل لها فإنها تحمل مقومات الحب بأكمله ولها نفس المتطلبات.. ولكن الفتاة كانت تعيش في بيت والدها وفي كنفه ولم تتهيأ لها الفرصة لكي تعايش موقفاً من قريب أو من بعيد.. كانت هذه البداية.. وقد رأت العروس مع خطيبها في موقف ربما يكون عادياً بالنسبة لهما.. ولكن بالنسبة لها هي فكان صدمة عاطفية من طرف واحد مما جعلها تقيم حساباتها من واقع كونها فتاة أيضاً وعطش لمثل هذا الموقف الذي لن يتحقق سواء في الوقت الراهن أو فيما بعد ذلك..

لقد خرجت نفيسة للحصول على بعض المال ولكنها عادت بأفكار جديدة

لعالم جديد أين هي منه..؟!.. فهي تخوض تجربة قطعت فيها خطوات بسيطة في داخل منزلها وهي حرفة الخياطة بأجر.. ولكن هذه المرة كانت الأولى خارج محيط السكن.. لترى ما لم تره من قبل.. ولتعيش إحساسات لم تستطع ردها عن نفسها والمجهول كان هو النتيجة النائية لهذا الموقف إلى هذه اللحظة.. لقد فجر موقف الخطيبين في نفسها ذكريات مضت لحالها ولم تكن أكثر من لحظات عاشتها في الخيال.. في أحلام اليقظة.. فهي من منطلق شكلها الذي لم يشجع أحد على التقدم إليها كبقية جنسها حققت هذه الخطوة بنفسها واختارت من لا تملكه مرة في شخص وزير على صفحات مجلة ومرة أخرى رجلاً تعايشه عن قرب ولكنه بعيد المنال بالنسبة لها.. جارها فريد أفندي وأقامت علاقة انتهت بالزواج وخططت إلى أبعد من ذلك حينما أقامت حائطاً حائلاً بينها وبين زوجة الرجل.. لقد وصلت بخيالها إلى بناء حياة زوجية متكاملة وكأنها أديبة في سبيل كتابة رواية محبوكة المواقف والأحداث.. إنها لم تلجأ لهذه الحيلة إلا لتحقيق رغبة رأت أنها في الواقع مستحيلة فلا ضير أن تحققها في الخيال.. كان ذلك في الماضي ولم تكن قد عايشت عن قرب موقفاً غرامياً كالذي رأته.. في منزل العروس.. وعلى ذلك فهي الآن في أشد الحاجة لتجربة ليست في الخيال هذه المرة.. إنها عاشت الموقف حقيقة وأحست برغبة تجرفها نحو التقليد فربما ينتهي الموقف كما تريد.. ولم تجد أمامها في هذا العالم الواسع سوى سليمان ابن جابر البقال الذي تلمحه حينما تريد ابتياع أغراض من دكانهم.. لم يكن شخصاً مناسباً بالمرة.. ولكنه في النهاية شاب.. رجل له مقومات كل الشباب الذين هم أحسن منه.. كما لها أيضاً نفس صفات الفتيات اللائي يفقنها جاذبية وأنوثة.. والجنس في النهاية هو ازدواجية الطبيعة في كل مفارقاتها.. إذن سليمان هو غايتها طالما أن أحداً سواه لم يطرق بابهم ولن يحدث ذلك لأسباب كثيرة منها عدم وجود مؤهل واحد يمكن أن يجذب هذا الوافد.. لم تكن ذا مال.. أو جمال.. يمكن أن يكون لها حسب ولكن الرجل قد مات.. ومات معه ذلك الحسب فلأي شيء يمكن أن يأتي ذلك الرجل الطامع في أي شيء من تلك الميزات.. إذن فليكن ذلك الرجل الذي يمكنه أن يرى فيها فرصة عمره بقيامها هي.. وكان ذلك صحيح منطقياً.. فهي فتاة تناسبه شكلاً ومضموناً وهو الذي لم يتعد كونه صبي يقال معدم لا يحمل صفة الوسامة

أو يمتلك شيئاً.. إذن فهي بالنسبة له فرصة نادرة.. وعلى هذا الأساس بنت نفيسة ذلك الموقف.. أرادت أن تعيشه كما رأت العروس مع خطيبها.. مجرد رجل وامرأة.. أو فتاة مع شاب يجمعهما لحظة قرب حرمت منها وهي ابنة الثلاثة والعشرين سنة ولم تجرب مرة واحدة لحظة قرب يجمع بينها وبين أحد من الجنس الآخر.. ومادامت قد رأت بعينها ذلك الموقف فلا مانع من الخوض في التجربة.. وتلقى تلك الفكرة قبولاً في نفسها.. وترى نفسها القبول في نفس الشاب سلمان.. إذن فلتكن التجربة فعسى أن تنتهي بنهاية سعيدة تحقق لها استقراراً دنيوياً كبقية أفراد الجنس.. وكان ذلك من حقها..

لقد كان خروج نفيسة لأول مرة بمثابة صدام عنيف بين واقعين.. واقع عاشته في الماضي تحت ظروف كان الأب فيها مصدر أمن وأمان لها وواقع، تخطو فيه أولى خطواتها في الحاضر الذي لم تكن تعلم ما يخبئه لها القدر من خلاله.. وكانت المواجهة الحقيقية في ذلك الواقع الذي حرك داخلها كل كبت طالما قهرها دون أن تتمكن من مقاومته.. ولكنها الآن تمتلك كماً من الحرية نتيجة هذه المهنة التي أعطتها الفرصة لكي تخرج دون أن تُسأل من أحد.. وتمكث في حدود محسوبة.. ولكنه أخيراً وقت غير قليل الذي تقضيه خارج البيت..

وإذا كان سلمان هو الشخص الوحيد الذي يعيش أمامها في الواقع فلا بأس من أن تكون التجربة العاطفية من خلاله.. ربما تنتهي نهاية سعيدة.. ولابد أن يحدث ذلك.. فهل يستطيع هذا الشاب أن يحصل على أحسن منها.. إنها بالنسبة له هدية بمقياس الطبقات الاجتماعية فهي نفيسة ابنة كامل أفندي الموظف المحترم.. ربما سابقاً ولكنها الحقيقة ومن يكون هو.. سلمان صبي بقال من الدرجة الخامسة وربما العاشرة إذن فهو في النهاية الرابح من وراء هذه العلاقة التي لابد أن تنتهي بالزواج كان هذا الشعور بالنسبة لها حقيقة اطمأنت إليها وعلى ذلك أقدمت بجرأة.. أرادت أن تعيش اللحظة التي طالما خلقتها في الخيال.. ولكنها تود أن تحققها في الحقيقة.. فتاة مع شاب منفردين كالموقف الذي رأته في بيت العروس.. إنها لم تكن أقل من أية فتاة.. وإذا كان فقر الشكل هو المشكلة.. فإن ذلك الرجل لم يكن يمتاز عنها.. إذن فلتكن المشيئة..

ويتم الحوار كبداية.. الحوار الذي يخلق موقفاً حقيقياً للخوض في طريق أرادته هي لكي تصل من خلاله إلى نقطة بداية أخرى.. ولتجد من الطرف الآخر تجاوباً ملحوظاً وتشجيعاً مطمئناً للمضي قدماً دون تردد.. فقد أضاءت أمامه الضوء الأخضر لكي يعترف بها بدوره دون خوف حيث يطلب منها اللقاء الذي طال انتظاره بالنسبة لها في قوله:

- في وسعي أن أغيب عن الدكان دقائق.. فاسبقيني إلى الشارع العام!

ونظرت إليه في اضطراب وحيرة.. وجدت في نفسها رغبة إلى ملاقاته ولكنها أبت أن تذعن دون ممانعة من جانبها وإلحاح من جانبه فقالت:

- أخاف أتأخر. (٨٧).

هكذا كانت البداية.. إن سلمان لم يقدم على هذه الخطوة إلا بعد أن وجد من نفيسة صدراً رحباً استجاب لتوسلاته التي لم يكن لها صوت بل كانت النظرات هي وسيلته كتجربة إما جانبها الصواب أو كانت خيبة الأمل هي المحصلة.. فإنه لم يخسر شيئاً في كلا الحالتين.. لقد كان الرجل يعلم تمام العلم بأن أبيه قد اختار له عروساً ابنة تاجر بقالة.. أي إن الطيور على أشكالها تقع.. وهو في نفس الوقت أي الأب كان طامعاً في تجارة الرجل أي أنها صفقة رابحة بأسلوب التجار أمثاله.. وسلمان يريد أن يروي ظمأ طالما وجد الشراب سهلاً مستساغاً وفي متناول يديه فلا مانع من أن يجرب.. وعلى ذلك كان طلبه إليها بالموعد الأول الذي سوف يفتح أمامه موعداً آخراً وآخر يقضي من خلاله أوقاتاً سعيدة.. ولم يكن في فكره قط نهاية كالتي تراود نفيسة والتي بنت عليها آمالاً وأيقنت أنها سوف تتحقق بمقياسها على الأقل.. وإذا كان سلمان قد طلب من الفتاة هذا اللقاء السريع في غفلة من الأب.. فإن ذلك كان نتيجة لعدة لقاءات سابقة استطاع بفطرته أن يصل إلى موافقتها قبل أن تهبها إليه.. وإذا كانت الفتاة لم توافق بحوار صريح.. إلا أن تلك الموافقة تضمنت ردها عليه.. فهي موافقة ولكنها تخشى أن تتأخر.. أي أنها لا تمانع من أن يكون اللقاء محدودا في الزمن.. ولا تخشى في نفس اللحظة أن يراها أحد مثلاً.. فهي أقامت للوقت وزناً ولم تلقِ بالاً بمن يراها.

لقد كانت نفيسة حتى هذه اللحظة مالكة لزمام أمرها رغم أن اللقاء قد تم.. وأقيمت الحوارات الطويلة.. كانت من جانبه الإلحاح على لقاء طويل بعيد عن الحي كله يمكن من خلاله أن ينال ما يتمناه والذي لا يمكن أن يتاح له في هذا اللقاء العابر القصير.. فهو لم يستطع تنفيذ هذا اللقاء إلا بعد أن حصل على إذن قصير من أبيه.. وهي في المقابل تخشى أن تتأخر.. وعلى ذلك فاللقاء الأول كانت تحكمه عجلة الزمن الذي لم يسمح إلا بدقائق كانت بمثابة الاتفاق على الموعد غير المحدد بالزمن..

غير أن نفيسة إذا كانت قد وافقت على اللقاء سواء من حيث المكان أو الزمان.. فإن ذلك لم يتم إلا بعد ممانعة مشوبة بالحذر والخوف والتمسك على الأقل بقيمة واحدة وهي إبراز حقيقة أمرها والتي تعد بعيدة كل البعد عن هؤلاء الفتيات اللاتي اتخذن من نسج العلاقات سبيلاً لا لشيء سوى للخوض في طريق السقوط.. لقد قالتها وأكدت على ذلك وكانت صادقة.. فهي بالفعل إلى تلك اللحظة لم تكن ترمي إلا إلى نهاية مشروعة ورأت أن تلك البداية يمكن أن تصل بها إلى ما قصدته.. ولذلك فهي ترد على سلمان بأنها ليست من هؤلاء الذين يظن الرجل بهم الظنون.. لقد أرادت أن تصل إلى نقطة وعلى ذلك كان تصرفها وعدم معارضتها تسهيلاً حتى لا يضيع الأمل.. وهو بدوره أدار حساباته جيداً وهو يرمي إلى هدف لابد أن يصل إليه ولذلك فهو يمهد ويتوسل ويترفع لوصول أول الخيط في يديه وبعدها يصل إلى أية نقطة يريدها بعيداً عن نهاية الزواج، بالقطع.. ومن هنا فإن اللقاء يتم ويتفق عليه وكل منهما يأمل في تحقيق هدف يختلف تماماً عن الآخر.. ولكنها البداية التي تستمر لكلا الطرفين وكل في واد.. فهو في نهاية اللقاء العابر يصل معها إلى اتفاق تباركه سواء في المكان أو الزمان وفي نفس كل منهما أمل:

- هل نتقابل إذن يوم الجمعة القادم

فترددت قليلاً ثم غمغمت:

- إن شاء الله. (٨٩)

توافق نفيسة على هذا الموعد وذلك اللقاء وهي تقهر من داخلها الخوف والتردد بعدما حاصرت نفسها جيداً لقبول هذا الرجل الذي لم يكن يوجد سواه ولن يكون.. فهي ترى أن في إقدامها لهذه الخطوة مهانة لها ولأسرتها التي لم تكن تعلم كيف سيوافقون على سلمان الذي لا يتناسب معهم من الناحية الاجتماعية. ولكنها تتمنى النفي ولو مؤقتاً حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا.. ولذلك فهي توافق من منطلق تحقيق خطوة إيجابية يمكن أن يتولد منها خطوات على نفس الطريق وتنال ما طالما تخيلته.. أما هو فكان في داخله رغبة تختلف تماماً عما خططته له نفيسة.. فهو يراها صيد ليس ثمين ولكنه سهل وفي النهاية إشباع رغبته من فتاة بطريقة عابرة سرعان ما تنتهي للبحث عن ضحية أخرى..

وإذا كانت نفيسة قد وافقت على هذا الموعد فإن الرفض منها لم يكن يصل بها إلا لغلق الباب دون تحقيق تلك الرغبة.. وهي أيضاً حينما لجأت إلى ذلك الرجل لم يكن أمامها دونه ولن يكون كما ذكرنا.. إذن فلا سبيل إلا أن يكون القرار بالإيجاب.. ويلتقيان مرة ومرات حتى أصبحت الفتاة وقد أدمنت هذه العادة حيث وجدت من خلالها اهتمامات يحفظ بها أنوثتها ويشعرها بأنها مرغوب فيها تماماً كأية فتاة تحمل سلاح الجمال الذي لم تكن تحظى بأدناه.. ولكن سلمان هذا ينتشلها من قاع اليأس إلى حافة الأمل.. والثمن إلى الآن لم يكن يذكر.. فهو يتأبط ذراعها أو يتقرب منها إلى درجة الالتحام فلا مانع مادام أنه في النهاية سيكون رجلا على سنة الله ورسوله.. فهذا يمكن أن يحدث.. وقد عاشته في بيت العروس ورأته رأى العين في وجود الخطيب..

وتتعدد اللقاءات التي كانت تستمر لأوقات تطول أحياناً.. وفي ظلمات الأزقة والحارات حتى يختلي بها دون أن يلحظهما عزول أو يراهما أحد ممن يخشونه.. ثم ليصل معها إلى ما لم يصل إليه في المرة السابقة.. فهو يتطور في كل لقاء.. سواء بالكلمات أو حركات اليد التي لم تكن نفيسة ترفضها هكذا كانت البداية التي لم تكن نقطة.. بل استمرت في مخطط يعلمه سلمان وتعيش على أمله نفيسة عله ينتقل من خطوة إلى سواها حتى تصل إلى مأربها.. وقد وجدت موقفاً ربما أشعل في نفسها التمادي في تلك البداية دون أدنى تردد.. رغبة أخاها حسنين في

الارتباط من جارتها بهية ارتباطاً مبدئياً تعقبه خطوبة رسمية ينتهي بالزواج.. هذا الموقف يحرك داخلها رغبة في الوصول إلى نفس الموقف.. إن أخاها مازال تلميذا.. وبهية ربما لم تتجاوز السابعة عشرة ورغم ذلك تجد من يطلبها وبصفة رسمية فما بالها هي التي تكبرها بسنين كثيرة.. هذا كان عاملاً مساعداً لدفع حركة القبول لديها والاستسلام لمتطلبات سلمان المحدودة جداً..

وفي المقابل يرى سلمان ذلك التجاوب منها استسلاماً مشوبا بالحذر.. إذن فما عليه إلا كسر حدة هذا الحذر ليصل إلى نقطة أعمق مما سبقها.. إنه مازال في الخطوات الأولى.. ولا بد له في أن يتقدم في مسيرته الشيطانية مادامت الفتاة تستجيب لنداءاته ولم ترفض أو تعقب على تفاهاته..

وكان سلمان قد أصاب ما رمى إليه.. فالفتاة حقاً قد وجدت فيه رجلاً يفوق ما سبق أن تخيلتهم.. رجلاً حقيقياً أثار في نفسها القيمة التي تعيش عليها بمعسول الكلمات التي أجادها وتكررت كثيراً ووجدت في نفسها القبول.. حتى أنها ترى فيه وسامة نابعة من قبح.. ولما لا.. فهو بمنطقها سوف يكون الزوج والأب لأبناء تكون هي لهم الأم.. ما أروع ذلك إذن فهو في ناظريها يحمل كل صفات الوجاهة والنبل اللذين كانا بعيدين في الحقيقة عنه..

وتأتي تلك البداية التي قطعت منها نفيسة شوطاً لعلها تصل إلى نقطة إيجابية تباركها الأسرة.. تأبى أن تستقر.. أو أن تتطور إلى ما ترمي إليه ولكنها تتطور إلى ما رمى هو إليه.. وذلك حينما يعرض عليها اللقاء في بيته الخالي من أي إنسان..

إن هذا العرض يعد بحق بداية حقيقية لنقلة شاملة في حياة نفيسة وذلك الوقت المحدود الذي قضته في بيته كان بمثابة تطور بارز لموقف لعبت فيه الأقدار دوراً خطيراً تحولت فيه الفتاة العذراء إلى امرأة ساقطة المتاع.. ولكن لابد أن نتعرض لموقف نفيسة إبان ذلك العرض قبل قبوله.. نعم لقد كانت نفيسة تصر على ألا يتم ذلك اللقاء في بيته وكأنها كانت تستشف صورتها إذا ما قبلت.. وتحت إلحاح الرجل بشتى الوسائل ملتمسا كافة الأعذار التي يمكن ألا تجعلها يخلو

بمفردهما مرة ثانية.. وفي هذا الالتماس تهديد تراه نفيسة يمكن أن يحول دون الاستمرارية التي قطعت منها شوطاً لا بأس به.. وعاشت إبان ذلك لحظات خوف تملؤها نشوة تحسها لأول مرة وتود استمرارها وهي هنا في انتظار اللحظة التي يقرر فيها سلمان انتقاله للخطوة التالية تكون هذه الأسباب كافية بالنسبة لها لقبول العرض آملة أن ينقضي وقته مثلما انقضت أوقاتاً سابقة يكون معسول الحوار الذي ارتاحت لسماعه منه والذي أجاده ببراعة ارتضتها.. ولا بأس من الزيادة في مثل هذا الموقف المنفرد والمنعزل والذي لن يشهد سواهما في ليل حالك وربما كانت هذه الرؤية مطابقة لرؤية الرجل مع مزيد من انتزاع ما لم يستطع انتزاعه في الأزقة والطرق خوفاً من عين يمكن أن تراهما.. فالبيت مهجور من أهله في تلك اللحظات.. والظلام يخيم على أركانه وهي فرصة للنيل منها قدر استطاعته ولكن في حدود لن يتعداها.. هذا قرار يمكن أن يتخذه وهو مازال بعيداً عن التنفيذ.. ولأن تكوينه يغلب عليه الضعف والجبن والتبعية.. فإنه لن يزيد عن ذلك.. إنه التقى معها مرات ولم يتسن له أن ينال منها أكثر من لمس اليد أو الاعتراف بحب لم يكن له وجود داخله.. ولكنه الآن يرى أنها فرصة لأن يزيد على ما سبق.. والبيت خالياً.. والوقت يسمح بذلك.. وهي حتى لحظته طوع أمره في كل ما قرر.. إذن فليكن التقدم خطوة أخرى تشبع ثورته.. ويكون اللقاء.. بعد ممانعة غير جادة يغلب عليها الضعف المتولد من قبول حذر وهنا يسجل الكاتب تلك اللحظات التي تصل فيها نفيسة إلى لا شيء:

فقاومت يده في وهن وهي تقول:

- كلا.. لن أذهب..

- دقائق معدودات.. عطفتنا معتمة ولن يرانا أحد..

وسار بها وهي تتبعه في تثاقل قائلة:

- كلا..(١٠٣)

لقد كان الموقف بالنسبة لها خطيراً.. فهي فتاة تحمل عفاف يعد كل شيء بالنسبة لها ولأي أنثى من جنسها.. وهو رجل يمكن أن ينتشي دون أن يفقد شيئاً

إذن فالخطر جاثم من جانب واحد وهو جانبها.. والقرار جد خطير.. ولكن الأمل الذي عاشت عليه ومازالت يدعوها للاحتفاظ بالرجل بالإضافة إلى الرغبة الملحة من جانبها والتي تود إشباعها ولكن دون أن تفقد شيئاً.. ربما كان ذلك دافعاً لمقاومة النفس للقبول.. أو على الأقل للانصياع لإرادته التي لم تكن تظن أنها أكثر من تبادل الرغبات في حدود، وهذا كان حقاً.. إذا لم نغفل البعد الاجتماعي والنفسي للرجل.. وبالرغم من تكرار الرفض إلا أنها لا تمانع في التمادي معه إلى ما يريد حتى أنها حينما تنتزع يدها من يده لا تكون للشدة في هذا الموقف أثر.. ولكن الضعف هو أداة التنفيذ.. وتمانع وهي مازالت مستمرة في أعقابه حتى أن دخل بها البيت سواء كانت رافضة أو ممتنعة أو راغبة.. فقد دخلت المكان الذي سوف تتحول من خلاله إلى شيء آخر مع الاحتفاظ بصفة الجنس فقط..

إن الصراع الذي يدور داخل نفيسة في ذلك الموقف والمواقف السابقة لم يكن سوى رصيد من تكوين سَوِيْ ترسب داخلها في ثلاثة وعشرين سنة كغرس ترعرع برعاية الأب.. حتى مات وبقي الغرس مهملاً ولكنه موجود وهذا الصراع كان دليلاً على تواجده.. فلم تقبل نفيسة عرضاً واحداً من سلمان.. من الوهلة الأولى.. أو كانت بادئة لعرض واحد.. بل كانت الممانعة ولن نقول الرفض.. كانت دائماً سابقة لموافقتها وهذا وحده يعني أن ثمة قيمة أخلاقية تكمن داخلها ولكن الخارج أحياناً يكون أقوى وحينئذ ينشأ الصراع ما بين الداخل أي القيمة والخارج وهو الحاجة أو الاحتياج.. ولأن القيمة لا تجد من يدافع عنها إذا وضعنا في الاعتبار أن المرء نفسه يكون وسطاً ما بين النزعتين القيمة والحاجة.. وإذا أضفنا أن ثمة طرف آخر يقف بشدة مع تيار الحاجة ضد القيمة فسوف نصل لنتيجة حتمية وهو أن الصراع يتقدم ناحية الحاجة التي لا تجد من يساندها سوى جزء من قوة في حين تكون الحاجة مستندة إلى الجزء الآخر بالإضافة إلى القوة الكامنة في الطرف الثاني وهو سلمان.. وعلى ذلك تخور قوتها وتتبعه رغم الممانعة التي لم تلق بقبولها أمام الحاجة التي كان وراءها سلمان ووعوده..

ورغم أن نفيسة تحقق لسلمان رغبته وهي تضع في اعتبارها الذي لم يكن في حالة طبيعية أن بعض التجاوزات سوف يأتي بها الرجل ويمكن أن تنفذها في

داخلها.. ولكن تحت ضغط وإلحاح شديدين.. وخوفاً من أن تفقد نقطة يمكن أن تكون لصالحها.. وبرغم ذلك تكون الموافقة منتزعة من خوفها وحرصها المشوبين برغبة هامشية لمشاركته بعضاً من نشوة عاشتها وأحستها في لقاءات سابقة.. ولكن في النور وليس في الظلام.. أمام شهود عيان ليسوا يمتّون لها بصلة ولكنهم شهدوا.. أما هذا اللقاء سوف يكون هائلاً.. بل كان بالفعل..

والى هذه اللحظة.. وبعد دخولهما البيت منفردين في ظلام حالك.. ومكان تدخله نفيسة للمرة الأولى.. ويحفظه سلمان عن ظهر قلب.. وكان الرجل والأقوى والطالب والراغب.. الخ.. ورغم كل ذلك يلازمها الخوف والحرص والممانعة خشية الوقوع في المحظور وتكون في نفس الوقت في موقف الضعف والذلة والمطلوبة.. ويحقق سلمان مخططه حرفياً بدءاً من قبلات اليد إلى لمس الجسد في كل جزئياته.. والظلام كان عاملاً مساعداً لكلا الطرفين.. وتفقد الفتاة العفاف في لحظة استسلام متولدة من التقاء رغبتين إحداهما سالبة والأخرى بمثابة محدثة انفجار غرائزي ينتزع الرجل الوديعة وتخرج الفتاة خاسرة من هذه الخلوة لتنتهي البداية الأولى والتي أعقبها بدايات للوصول إلى نهاية مبكرة سوف يتولد منها بدايات كثيرة تصل كل منها إلى نهاية منطقية طبقاً للمواقف المشكلة لها..

لقد خرجت نفيسة من بيت سلمان شخصاً آخر.. امرأة دون زواج لتستقبل من لحظتها بداية جديدة.. وتستقبلها الأم وكأن شيئاً لم يحدث وتعلل تأخيرها بسبب العمل.. وتعيش أياماً مقبلة دون أن يلحظ أحد من أخواتها شيئاً.. ويكون تصرفاتها عادية وكأنها ارتضت ذلك التغيير ولو مؤقتاً على أمل أن يعالج سلمان الموقف..

ويتم اللقاء ويجد سلمان الفرصة مهيأة أمامه لتكرار ما سبق معتقداً أن نفيسة أصبحت رهن إشارته مادامت قد سلمت نفسها إليه.. ويكاشفها بما يريد صراحة دون تورية.. ورغم ما أصاب نفيسة من كارثة فإن داخلها مازال يحمل بقية باقية من كرامة أهدرت ولكن مازال بعضها كان داخلها معلنة الرفض هذه المرة وليست الممانعة مما جعل الرجل يلجأ إلى تغيير الحوار وهو يرمي أيضاً إلى ما أراد متسائلاً عن موعد الزواج.. وكأن المرأة هي التي تقرر وليس الرجل هذا

التساؤل لم يحمل في داخله سوى معنى واحد بالنسبة إليه وهو تحقيق غريزة يريدها ويفجر معناها أمامها عل نفسها أن تمتثل.. ولا تعقب المرأة.. بل يكون الخجل والحيرة هما إجابتها..

إذن فالمرأة هنا وهي نفيسة وهذا لقب يناسبها بعد ذلك الموقف فلم تعد الفتاة ابنة الثالثة والعشرين عاماً.. مازالت تحمل داخلها في هذه اللحظة خجل الأنثى.. فإن ما حدث لم يكن أبداً باختيارها أو حتى بموافقتها.. لقد حدث رغماً عنها وهذه حقيقة.. كانت في موقف ضعيف بكل المقاييس.. وقد سبق أن أشرنا إلى بعضها.. نزيد هنا الضغط الجسدي من الرجل الذي أحدث سلباً لإرادة نفيسة مع استلام لقوة الجنس من الرجل وهذه طبيعة بشرية.. كل ذلك أفقدها المقاومة التي كانت قد ماتت تماماً لينتهي الموقف بسقوطها..

ولكن الرجل يعلل ما حدث برضاء الطرفين.. فقد أراد أن يصل إلى شيء ووصل إلى أبعد منه.. والطرف الآخر لم يكن أقل منه رغبة وعلى ذلك يقيم حواره لمزاولة الاستمرارية المرغوب فيها من كليهما هذه كانت رؤيته.. حتى أنه يعرض عليها بديلاً من البيت الذي لم يصبح خالياً.. يعرض عليها بعض الأماكن القذرة المفتوحة والتي يسترها الظلام لمواصلة ما بدآه ظناً منه أنها متعطشة مثله تماماً ولكن نفيسة لم تكن قد فقدت كل شيء.. نعم هي فقدت العفاف ولكن الحياء مازال يقظاً داخلها.. والأمل الذي لم تصل إلى هذه النهاية إلا من أجله.. الأمل في تحقيق حياة شرعية مازال يراودها.. بل كان هو الطلب الذي لم يكن أمامها سواه.. وهو أيضاً الوتر الذي لعب عليه سلمان لكي يستميل هواها في استمرار إشباع رغبته طالما أنه في النهاية سيكون الزوج رغماً عن كل معارضيه متمسكاً بها متحدياً والده ومن يقف في طريقه..

لقد لجأ سلمان إلى هذا الوعد حينما وجد من نفيسة رفضاً قاطعاً لمواصلة البداية التي حددها هو لها ظناً منه أنها أصبحت طوع أمره ولكن المرأة هنا كانت إلى هذه اللحظة تصر على معالجة الأمر دون الاستمرار في الخطأ الذي ارتكبته في لحظة ضعف تام ولم يكن بديلاً من الزواج لإصلاح ما أفسده سلمان سواء قاصداً أو مضطراً في لحظة ضعف مماثلة..

إذن فإن نفيسة من هذا الموقف فقط تكون قد حافظت على ما تبقى داخلها من كرامة وإن الأحداث التي تلي ذلك الموقف لها مسبباتها إذا ما أضفنا ذلك الاحتياج سواء المادي أو الجسدي والذي تذوقته المرأة لمرة واحدة.

ولكن الموقف مازال يحمل الكثير لعدم إدانة نفيسة مما وقعت فيه.. إنها سقطت إلى الحضيض.. ولكن ذلك كان دون إرادتها وبعيداً عن الوعي لقد ذهبت مع سلمان لكي تجعل الخيط الذي يربط بينهما سليماً لا ينقطع.. فكانت توافقه على كل ما يطلب ليس من الوهلة الأولى.. ولكن بعد تدلل وممانعة تتم عن حياء.. ولكنها في النهاية تنصاع إلى رغبته سواء في الخروج إلى أي مكان حتى ولو كان روض الفرج بما يحوي.. أو مسك يدها في الشارع أو مغازلة بكلمات تصل إلى الغزل المكشوف.. فهي في النهاية كانت ترى أو تأمل أن الارتباط سوف يبارك كل ذلك.. وإذا كانت قد وافقته على هذه الأمور فهي أيضاً توافقه مرغمة على الذهاب لبيته وهي تعلم ما يريد من وراء تلك الزيارة.. ما يريده بمنطقها لم يكن يزيد على لمس الجسد وإن زاد فقبلة الثغر وهذا أقصى ما تخيلته ولم تحقق له ذلك إلا بعد ممانعة مشوبة بخوف وحذر وليس تجاوباً إيجابياً بل كان تحت ضغط الكلمات المعسولة والمقرونة بالأمل الذي كانت تنتظره بحق.. إذن فهو كان يحقق لها ما كانت تتمناه وتخشى أن تعترف به.. وعلى ذلك ذهبت معه.. ولكن الضعف البشري من كليهما كان أقوى من الحرص على الأقل منها.. ذلك الضعف الذي لم يستغرق سوى لحظات فقد فيها كل منهما وعيه وشعوره ليعيشا تلك اللحظة الخاطفة التي مات فيها الخوف من المحذور ولم تتجسد أمامهما سوى لذة الموقف.

ورغم كل ذلك فالمرأة مازالت تحمل داخلها قدراً من الأمل في أن تتمكن الأيام من احتواء تلك الأزمة بالزواج من سلمان.. وإذا تم هذا الأمر فسوف تستقيم الحياة كما أرادتها.. إن هذا الأمل كان شغلها الشاغل وقد استطاعت أن تتحكم في أعصابها حتى أن الأسرة لم تلحظ أي تغيير طارئ على تصرفاتها.. بل كانت تمزح كعادتها وتخرج وتعمل وتعيش مادام الأمل في الغد القريب سوف يحقق لها ذلك والبداية التي صنعتها مازالت في أولها وهي تعمل على إنهائها عاجلاً أو آجلاً.. ولكن القدر ينفذ مشيئته مهما كانت الحسابات دقيقة وذلك حينما تعلم نفيسة

بمشروع زواج سلمان من ابنة جيران البقال والذي كانت قد سمعت عنه من سلمان نفسه وهو ينفي صحته بل ويجزم على الرفض أمامها مفضلاً نفيسة بكل المقاييس.. فهل انقلبت الأوضاع.. أم كان ذلك الرفض من سلمان مجرد كلام للنيل منها..

إن نفيسة إلى آخر لحظة كانت متمسكة بالرجل.. حتى أنها حينما تسمع نبأ زواج ابنة الجيران حيث كانت هي المستدعية لخياطة ثياب الفرح.. حينما تسمع ذلك يملأها السرور وهي تظن أن الفتاة التي كانت بمثابة غريمة لها سوف تزول من طريقها وبذلك يزول الخطر.. نعم سوف تتزوج تلك الفتاة من أي إنسان مادام بعيداً عن رجلها.. وفي هذا الكفاية.. ويمكنها إذن أن تنتظر الموعد الذي يتحدد.. حينما يموت جابر والد سلمان.. لا بأس.. فهي ليست في عجلة من أمرها مادام الأمل سيتحقق ويصلح ما كسر وتنقشع تلك الغمة قبل أن تفوح الرائحة كانت إلى تلك اللحظة في راحة نفسية.. ولكنها حينما تعلم باسم العريس.. سلمان جابر.. ابن البقال المجاور لمسكنهم.. ينقلب كل شيء داخلها وتختلط الحسابات التي أقامتها منذ لحظات ويموت الأمل.. ويتلاشى ضوء المستقبل الذي تخيلته ولا يبقى سوى شبح الفضيحة متجسداً أمامها.. فالموقف جد خطير.. والقرار ليس سهلاً الوصول إليه ولكن لابد من عمل شيء ولآن فالوقت أصبح بالنسبة إليها كالطوفان إن لم تتحصن فسوف يجرفها تحته..

وإذا كانت نفيسة قد عاشت أياماً بعد تلك الخطيئة والتقت بسلمان عدة مرات.. فإن ذلك كان مبعثه الأمل في أن يحين الوقت لجمع الشمل المتفرق.. فهي مازالت ترى أن سقطتها تولدت من إنسان أحبته حباً صادقاً ورأت فيه رجلاً متكاملاً رد لها اعتبارها الذي لم تكن هي شخصياً تؤمن به.. ولم تسمع رأياً جسد لها إنسانيتها بل وأنوثتها سوى من هذا الرجل.. وعلى ذلك فقد أعدته فارس أحلامها الحقيقي وليس الاسطوري أو المتخيل.. وبالرغم من كل ذلك فهي لم تسلم له نفسها بسهولة أو على الأقل بإرادتها كما سبق أن أبرزنا في أكثر من موقف..

وهذا اللقاء غير المتوقع وفي تلك الساعة من الليل وبتلك الجرأة أمام والده والذي كان يشوبه التهديد.. فإن هذ اللقاء لم يكن سوى استجلاء حقيقة سمعت

بها وآلمتها.. بل أفقدتها كل شيء ولكنها تود الوضوح من طرف أساسي وهو سلمان نفسه.. كانت تود ولو أنه يلتمس العذر لنفسه لقبول ذلك الزواج الذي أرغمه أبوه لتنفيذه وإلا كان الطرد مصيره.. ومعنى الطرق أي الجوع وهو غير مستعد أن يقع في هذا الخطر.. ومازالت المرأة في حوارها معه في استعطاف تارة.. وإذلال مرة أخرى.. وتهديد حيناً.. ومسكنة أحياناً.. ولم تجد منه سوى الاستسلام والإجابة التي لا تجدي.. وهي حينما تشتد في الهجوم عليه بالحوار وتصب أقصى كلمات التقريع لم يكن منه سوى صد ذلك الهجوم بالسلب المتناهي.. كانت تريد منه أن يصنع شيئاً كرجل أخطأ ولابد له من إصلاح هذا الخطأ.. ومع ذلك كان التهرب من كل حوار هو السمة الواضحة منه.. إنها حتى هذه اللحظة تريد لنفسها حياة شريفة مع ذلك الرجل حتى بعدما اكتشفت حقيقته التي كانت أصلاً موجودة سواء داخله أو خارجه ولكنها أغفلتها من منطلق الرؤية الوردية التي كانت تراه من خلالها.. ولكن الآن تكشف على حقيقته وبرزت كل صفة قبيحة واضحة تماماً ومع ذلك فهذا الوحيد أمامها الذي يمكنه إصلاح ما أفسده هو ولا أحد سواه وتحاول وتجادل وتحاور وتتذلل وتهدد وتتوعد وهو لا يحرك ساكناً كأنه يريد للموقف أن ينتهي إلى هذا الحد.. ثم يتقدم خطوة في الحوار متحدياً عساها أن تقتنع أنه لن يستطيع عمل شيء لهذه المشكلة:

- ماذا عسى أن أصنع؟

وركبها شيطان الغضب واليأس فالتفتت نحوه.. وانقضت عليه بسرعة البرق وأمسكت بتلابيبه وهي لا تدري ماذا تفعل وصاحت في وجهه:

- أتسألني عما تصنع! هي حسبتني لعبة تلهو بها حين تشاء وتحطمها حين تشاء؟!

ثم يكون الهجوم أولاً باللفظ:

- جبان.. سافل.. وغد.. غادر.. (١٣٣)

ثم يتطور ذلك الهجوم اللفظي إلى هجوم حقيقي محدثة به إصابات سال دمه من أثرها..

لم يكن هذا الموقف إلا انعكاس صراع نفسي بدأ متوتراً ثم تصاعد حتى وصل إلى قمته.. لقد وجدت نفيسة مستقبلها في مهب ريح عاتية عصفت منذ سماعها نبأ زواج سلمان.. فهي حتى هذه اللحظة كانت شبه قانعة بالوعد الذي قطعه الرجل أمامها على نفسه في آخر لقاء وهو يسألها "متى يتم الزواج" كانت هذه الجملة هي آخر عهدها به وقد شكلت لها طوق نجاة أو استمرار أمل لم يراودها بل كان في حياتها حقيقة كاملة أيقنت تنفيذه من رجل سلبها أعز ما تملك الفتاة وأحالها بخطأ سواء عن قصد أو جاء في غفوة العقل إلى امرأة في الواقع أمامه وأمام نفسها.. أما بقية البشر فهي أمامهم الفتاة العذراء.. حتى أنها تأمل أن يتم ذلك الزواج آجلاً حتى تستقر أمورهم العائلية وعلى أمل انتقال الأب إلى العالم الآخر وهو الذي يشكل لها عائقاً لما أسره الرجل في نفسها.. ولكن الجديد الذي حطم كل توقعاتها لم يكن أن تتحمله.. وهذا الموقف كان بمثابة استكشاف لصدق الخبر وهي في نفس الوقت تتمنى تكذيبه من الرجل.. ولكن سلبيته التي فاقت كل الحدود وهي تؤكد الشائعة جعلتها تنتقل بهجومها الهادئ الذي لم يخرج عن كلمات تحمل أسئلة يتوقف عليها مستقبلها إلى مستوى أعلى بنفس الكلمات ولكنها تحمل أيضاً معنى قصدته نفيسة ولم تقل سوى الحقيقة التي تشكل أبعاد ذلك الرجل.. جبان.. سافل.. وغد.. غدار.. لقد صدقت حينما رمته بهذه الصفات.. فهو جبان لأنه لم يتخذ موقفاً إيجابياً تجاهها وهي في أزمتها التي لا حل لها إلا من خلاله.. فهو حينما يتخلى عنها منفذا أمراً لأبيه بعدما أخطأ في حقها لم يكن ذلك إلا جبناً مؤكداً بعيداً عن الشهامة.. ثم إنه أيضاً "سافل" لأنه انحدر بأخلاقه إلى أسفل نقطة أخلاقية حينما غافلها بوعوده التي لم تكن سوى تضليل للنيل منها ثم صفة الغدر لم تكن إلا نتيجة القصد منه بارتكاب هذا الجرم في حقها وهو الذي لم يكن أبداً يفكر في الارتباط بها تحت أية ظروف.. فهو يعرف عنها كل شيء.. الفقر والحاجة أهم هذه الأشياء.. وبمنطق التاجر لا يمكن أن يقدم على شيء إلا إذا أيقن مكسبه من ورائه.. وعلى ذلك فالأب يختار والابن يطيع لأن تلك صفقة رابحة.. أما نفيسة فلم تكن أبداً بهذا المنطق إلا سلعة خاسرة.. إذن فالرجل اتخذها سلوى يشبع رغبته منها ولا أكثر ولم يكن أيضاً يريد أن تصل الأمور إلى ما وصلت إليه.. فكان مأربه لا يزيد عن علاقة سطحية

تؤكدها الكلمات التي لم يكن يخسر من ورائها شيء وفي نفس الوقت يكسب بها ما يريد..

لقد وجدت نفيسة من سلمان موقفاً سلبياً بكل المقاييس.. طرحت له حلولاً وبدائل ولكنه لا ينطق بما يشفي غليلها.. فهو قد ارتضى قرار الأب عن قناعة كما ذكرنا.. ابنة جيران البقال مكسب له.. أما نفيسة فلم تكن سوى خسارة والتاجر هنا يكره تلك الكلمة.. ونفيسة تريد أن تجد حلاً يحفظ لها ماء الوجه وينتشلها من فضيحة لابد أن تتفجر ولن يتحمل تبعاتها سواها وأفراد الأسرة في تلك العطفة التي شهدت بأصالة تلك العائلة.. وبتطور الصراع النفسي تصل المرأة إلى الاشتباك الفعلي وتحقق الهجوم والالتحام وتكون المبادرة هنا بيدها دون أدنى دفاع من الطرف الآخر.. وتصل الأمور إلى إصابات في الوجه ودم سائل.. ومع ذلك فالسلبية هي رد الفعل من سلمان.. فهو يعترف في نفسيته بذلك الجرم الذي لم يكن له حل إلا..!! وهو غير مستعد إطلاقاً لتحقيقه وعلى ذلك فهو تحمل الإهانات باللفظ والاعتداء المباشر وفضل التضحية بدمائه على أن يخرج من هذا الموقف دون أن يخسر شيئاً.. وينجح في ذلك.. ولا تصل المرأة إلى شيء.. إذن فعليها أن تدبر أمرها وقد أصبحت في مفترق طرق لا تدري أيهما تسلك.. وهو قد فلت منها لتحقيق زواج مكسبه أكيد..

وينتهي اللقاء دون إحراز تقدم في الموقف.. بل تجد أن الأمل قد مات وباتت هي وقد ارتضت قرار القدر ولم تحسب للنتيجة أدنى اهتمام.. فهي تذهب إلى ابنة البقال في بيتها وتتم المواجهة.. كانت تراها متهمة بخطف منقذها ومحقق آمالها.. وتشتبك معها في حوار يبدأ هادئاً ولكن السخرية تشوبه من ناحيتها دون أن تفطن الأخرى لما ترمي إليه ولكن الحوار سرعان ما يتطور ويتحلى وبجملة واحدة من الطرف الآخر تثور ثائرة نفيسة فهي بعدما عددت عيوب العريس واستنكرت الوسط الذي ينتهي إليه لم يكن من "بدرية" إلا أن قذفتها بفلظ "خياطة" وهي تعني معنى جارحاً.. تخرج نفيسة من هذا الموقف وهي ترى أنها قد حققت لنفسها ثأراً من غريمتها ومن سلمان نفسه..

لقد ضحت نفيسة بمكسب هذه الصفقة لمجرد أن العريس هو خادعها وأن

العروس هي السبب في جمود المشكلة التي كانت تعتقد أن حلها آت إن آجلاً أو عاجلاً طبقاً لاعترافات سلمان نفسه.. أما في وجود بدرية وهي تقف أمامها وتعرض عليها ملابس الزفاف فإن الموقف كان أكبر من أن تتحمله.. وكانت النتيجة الطرد من البيت وفقد عائد تلك الصفقة التي كان البيت في أشد الحاجة إليه.. وخرجت خاسرة خرجت قبل الموعد بوقت كبير.. فهي إن لم يحدث ما حدث كانت ستقضي عملاً أقل تقدير ساعة ويزيد في الاتفاق ومعاينة الأقمشة وربما تقاضت مبلغاً مقدماً.. وهذا كله كان يمكن أن يجنبها أحداثاً بعينها أهمها اللقاء الذي تم بالصدفة نتيجة تركها بيت جيران البقال قبل انقضاء الوقت المقرر.. حيث يعترض طريقها "محمد الفل" الذي يكون له شأن بارز في تطور الأحداث المرتبطة بنفيسة..

هذا اللقاء أو الاعتراض من جانب الرجل لم يكن مصادفة.. فهو قد رآها في حال شرود لا تعي لخطواتها سبيلاً محققاً.. وكان ذلك أمراً طبيعياً بعد المواجهة الساخنة التي خرجت منها بكسب معنوي وخسارة مادية.. لم يكن مظهرها ينم على جيدة فتاة تحمل إرادة واعية.. بل كان التشتت الفكري والصراع الذي يحكمه التناقض الواضح ما بين الكسب والخسارة التي حققتها نفيسة.. كانت هذه الهيئة جديرة بأن تجعل الرجل يحكم وبسرعة عليها حكماً قاسياً ولكنه غير ظالم..

لقد رأى هذا الرجل أن تلك المرأة تبحث عن شيء وهذا الشيء لا يمكن أن يكون سوى رجل.. إذن فهي من هذا الصنف الذي يتعطش لأحد أمرين أو كلاهما معاً.. الأمر الأول الحصول على الرغبة وتحقيقها مع من يصادفها فهي تجوب الأرض في البحث عن رجل.. أما الأمر الثاني أن تكون في حاجة مادية ثمناً لمنح الطرف الآخر متعة لزمن محدد.. وربما الأمرين معاً.. وعلى ذلك فهو يقصر عليها طريق البحث عارضاً نفسه ليكون ضالتها لتحقيق أحد الأمرين أو كلاهما معاً ولم ولم تكن تلك الوسيلة بجديدة عليه باحترافه لها.

على حين أن نفيسة إلى هذه اللحظة لم يكن في حسبانها شيء سوى مشكلتها التي باتت دون وجود حل لها وكذلك تحقيق كسب مادي من العمل في الخياطة لاستمرارية الحياة الأسرية التي كانت تساهم فيها بقدر كبير..

ولكن بعد موقفها مع بدرية وخروجها في هذه الحالة.. فهي تمشي في الشارع ولا تدري بماذا تفسر ما حدث وكيف تصاعد الموقف إلى هذه الدرجة.. إنها تقيم حسابات دقيقة مع نفسها أثناء السير.. إذن فهي لم تكن تعي طريقها جيداً لانشغالها بتحليل ذلك الموقف.. وهذا ما جعلها في موقف مهزوز حتى يحكم عليها هذا الحكم.. ولكن الأمر الخطير هو ذلك العرض من الرجل.. إنه يعرض عليها نفسه!! وهي لم تكن في حالة فكرية واعية لكي تحلل هذه الكلمة.. ولكنها وجدت اندفاعها نحوه بشدة وهي تحافظ على شرفها أو ما تبقى منه بتهديده بالعسكري.. إذن فهي إلى هذه اللحظة أيضاً كانت تود إنهاء مشكلتها بطريقة تبعد الشك في أسرتها.. أما وأن سلمان قد اتخذ ذلك القرار.. ورغم فشلها في إيجاد حل.. أو الوصول إلى نقطة من خلالها يمكن أن تصل إلى نهاية تحفظ لها كرامة عائلتها.. فإنها رغم ذلك مازالت تصر على التمسك بالفضيلة.. وهي لم تكن غير ذلك.. فإنها حينما تطاولت على بدرية مضحية بأجرها في ذلك العمل.. لم يكن هذا إلا من منطلق التمسك بالكرامة.. إذن فأمام ذلك العرض من هذا الرجل لم تجد سوى التهديد بالشرطة وهذا دليل على وجود كم من تلك المحافظة التي نشأت عليها ولم تكن تود أن تصل إلى هذه النهاية..

لقد شكل الفقر في حياتها مشكلة لم يكن لها من حل سوى الحصول على المال مهما كان ضئيلاً.. فحياة الأسرة مهددة بالضياع.. وهي تملك هواية الخياطة التي انقلبت إلى حرفة.. ومن هم سواها في تلك الأسرة كانوا دون المقدرة على اكتساب بعض من المال حتى الأخ الأكبر حسن الذي لم يكن يعمل شيئاً.. إذن فإنها وجدت أن الالتزام بالعمل هو الحل الوحيد.. بل الأوحد للخروج من هذا المأزق.. وكان الفقر هو البداية التي تطورت حينما عرفت البيوتات من خلال العمل والوقوف على حياة كل بيت وهو الأمر الذي فتح لها أفكاراً لم تكن تصل إليها.. مما دفعها إلى التجربة الأولى والأخيرة مع سلمان وهي تأمل أن تنتهي نهاية ترضاها ولكن القدر لم يشأ لها تحقيق ذلك الأمل.. وما حدث قد حدث وإلى هذه اللحظة فقدت الأمل في إصلاح ما أفسده الرجل سلمان.. ثم ينتهي الأمر بالمواجهة مع بدرية.. لقد كان موقفاً صعباً بكل المقاييس.. وما أتته من تصرفات لم يكن

سوى الحد الأدنى لمن في مثل حالتها.. وأيضاً انتهى كل ذلك بشرود الذهن واستحضار ما وقع وإقامة حسابات مع نفسها حتى يكون الختام هذا الرجل محمد الفل.

لم يكن أمام نفيسة في ذلك الموقف سوى الانفعال النفسي لكي تثأر لقضيتها من كل الرجال.. فإذا كان سلمان فعل ما فعل وانسحب جباناً دون الاعتراف بجريمته.. بل إنه يصل به الأمر إلى أن يقذفها بتهمة ارتضاء ما وقع لها.. ثم يكون هذا الرجل الذي يريد أن يؤكد فعلة سلمان.. أهكذا أصبحت رمزاً دنيئاً لصنف الرجال المنحطين.. أو سواهم وكان الهجوم الشرس منها وتهديدها له بما يخافه..

ويموت آخر أمل في قلبها بعدما يتم زواج سلمان وبدرية ويكون حسن أخوها هو الذي يحيي الفرح ولا يعلم عن مشكلة الأخت شيئاً.. ربما لو علم لتغير الوضع إلى النقيض فهو يعد فتوة والكل يهابه.. ولكن لأن القدر أراد أن ينتهي الأمر بشكل مأسوي لا تنطق نفيسة بشيء وتكتم السر داخلها..

ويجد الصراع النفسي استقراراً نسبياً وكأن المرأة قد اعتادته وتعايشت معه حتى أدمنته.. ربما كان يعلو أحياناً.. ولكنه سرعان ما يصل إلى مستوى تحملها وكأن المشكلة قد وصلت إلى نقطة الذروة واستقرت لا هي بالتي تنفرج وتحت أية مسمى.. أو أنها تجد تصاعداً آخر يمكن الاستمرار لكي تصله.. فالسقوط قد تم.. والجاني قد فلت من العقاب أو على الأقل إصلاح ما ارتكب.. وذلك بزواجه وفشل نفيسة في الحصول منه على أي وعد.. والأمل في نفس الوقت في الحصول على من يسترها مفقود.. إذن فلا حيلة لها سوى الاستسلام للواقع حتى ولو كان علقماً أو لا بديل.. وهي في نفس الوقت تريد للحياة الاستمرار.. وعلى ذلك لا تجد سوى العمل الذي ينتهي بأجر يمكن أن يساعد على تخطي عقبات الحياة..

ولكن تلك الحياة التي تمر برتابة وفي النهاية تكون المحصلة قروشاً ليست بكثيرة وهي لا تكاد تكفي القليل من الضروريات ولا سبيل لها من الزيادة فهذا كل ما يمكنها بذله..

كذلك فقد جد جديد في حياتها جعلها تعتاده.. وهو ملاحقة الرجل محمد

الفل لها في الرواح والغدو.. كلماته التي لا يملك حتى أنها أصبحت تستحسنها.. ربما لأنها تحيي الأمل في نفسها كامرأة مازالت تجد من يغازلها حيث لم يكن غزلاً وهي تعلم ذلك..

لقد بدأت نفيسة مرحلة جديدة في حياتها.. فهي قد ارتضت الكلام الصادر من ذلك الرجل لإحياء أمل داخلها.. وذلك بدليل أنها قد اتخذت من ذلك المكان مساراً لها في العودة من عملها.. وإذا كان الحوار لا يرضيها كما فعلت في المرة الأولى وهددت الرجل باستحضار العسكري فَلِمَ كررت نفس الطريق؟!.. إذن فإن ثمة صراع آخر قد استطاع أن يصل إلى داخلها.. وهذا الصراع يمكن أن يؤول لأكثر من سبب فهي بالنسبة لخوفها على شيء.. فإن هذا الشيء غير موجود أصلاً.. لقد سلب منها بثمن بخس.. وهي في نفس اللحظة تعلم تماماً ما يبغي ذلك الرجل.. إنه لا يريد أن ينسج علاقة غرام تنتهي مثلما يحدث في السينما بارتباط مقدس.. ليس ذلك الرجل من هذا الصنف.. وحتى لو كان منه.. فليست هي أهل لذلك الطريق المنتهي بزواج وهي تعلم تماماً مقدار ما تتحلى به من الجمال والفقر والأسرة وسقوط المتاع يكلل كل ذلك في النهاية.. إذن فهو يريد...!! وهي أيضاً تريد.. فهما يلتقيان بفكرهما بمقابل وليس بالمجان كما فعل سلمان.. إذن فالمقابل مطلوب بالنسبة لها.. فهي هنا سوف تكون سلعة.. سوف تحصل على مقابل.. وسوف أيضاً تحقق مطلباً جنسياً لم يكن بجديد.. ولن تكون خاسرة في هذه المرة أو في المرات التالية.. فالخسارة لم تكن إلا مرة واحدة وقد حققتها أما الحصول على المقابل مادياً فهي تحتاجه لتكسر به شوكة الفقر الذي استشرى في محيط الأسرة.. وفي نفس الوقت تشبع به رغبة باتت مؤرقة وبيدها إخمادها.. والرجل رهن الإشارة لو استجابت.. إذن لماذا التدلل وهي الراغبة..

هكذا هوت حقيقة في هذه المرة.. لقد سبق أن أخطأت مع سلمان ولكن ذلك كانت له ظروف مقنعة.. وتم تحت أكثر من وعد كانت هي في أشد الاحتياج لتحقيقه وعلى ذلك كان الاستسلام نوعاً من الإغراء لسلمان حتى لا تفقده.. ثم إن لحظة السقوط لم تكن أبداً في حسبانه.. لقد تمت تحت تخدير أعصابها وفي مكان مظلم لم تر من خلاله شبح الجريمة..

أما ـفي هذا الموقف.. فهي خططت له بدقة.. نعم لقد فاجأها الرجل ـفي المرة الأولى حيث وجد فيها ضالته وهو الخبير بالنساء الساقطات وقد لاقى ـفي هيئتها صورة لبنات الليل ـفي شرودها وخطواتها غير المتزنة حيث إن الموقف آنذاك كان مؤلماً.. وقد ردت الصاع صاعين ـفي هذه المرة.. ولكن الأمر اختلف تماماً بعد ذلك.. فهي قد اتخذت من هذا الطريق نفسه مساراً بصفة مستمرة وكان يمكنها آن تتلاشاه أو أن تصد الرجل ـفي المرة الثانية أو التي تليها كما فعلت ـفي المرة الأولى ولكنها لم تفعل ووقع كلام الرجل منها موقع القبول.. وعلى ذلك أرادت أن تعيش هذه المواقف أكثر من مرة.. وقد تولد عن هذه الكلمات استجابة وصلت إلى ذروتها.. ونداء الجنس داخلها دفعها بقوة لاجتياز اللحظة الحرجة.. وبالفعل تستجمع قواها العاطفية بعيداً عن منطق العقل ولو مؤقتاً لتنهي ترددها.. وتجد منه ـفي نفس اللحظة تجاوباً شديداً وكأنه قرأ ـفي موقفها الرغبة هذه المرة.. لكي تسقط سقوطاً حقيقياً حينما تخطو الخطوة الأولى نحو سيارة الرجل وركوبها بجواره واستلامها لمشيئته وقبولها العشرة قروش ثمناً لقضاء مأربه وإشباع رغبتها أيضاً..

لقد وصلت نفيسة إلى بداية أخرى.. بعد أن كانت تعيش قمة مأساة وـفي نهايتها ولا تجد انفراجاً لها.. ولكنها هذه الخطوة تكون المأساة الأولى قد انفرجت ذروتها وهبطت لتصل إلى أسفل السافلين لتتخذ نفيسة من هذه النقطة بداية جديدة تخطو خطواتها الأولى حيث لم تكن الوحيدة.. حتى أن الرجل لم يكن يعلم عن حقيقتها شيئاً والحوار الذي يدور بينهما ـفي سيارته حيث يحدد لها المكان ـفي صحراء ألماظة وتتساءل:

- صحراء ألماظة؟ هل نغيب طويلاً؟

- حتى منتصف الليل

فتملكها فزع شديد تراءى لها خلاله وجه أمها وشقيقها وتقول بلهجة المستصرخ:

- يا خبر اسود.. يجب أن أعود إلى البيت قبل العشاء.. أوقف السيارة بربك..

- حقا؟! لا تخافي.. سنعود قبل العشاء، ولكن ماذا تخافين؟

فلحظها بارتياب ساخر وسألها بلهجة ذات معنى..

- أهلك! ألا يعلمون؟! (١٦٧)

لقد سقطت نفيسة منذ الخطوة الأولى لركوبها سيارة محمد الفل.. ولم يكن طريق السقوط يحسب بالخطوات.. بل بالمسافة التي اتخذت إيقاعاً سريعاً بالسيارة.. لقد كان الطريق من شبرا إلى صحراء الماظة في ذلك الظلام طويلاً ولكنه لم يستغرق وقتاً لأن سرعة السيارة اختصرت الزمن في دقائق كثيرة.. نعم لقد سقطت راغبة تحت وطأة الاحتياج المزدوج.. المال والرغبة.. وهما في نظرها متعادلين فهي تريد المال أولاً.. وتقرن الرغبة بالمال رغم أن الرغبة من الطرف الآخر هي التي تهيئ لها المقابل المادي.. ولكن ذلك لم يكن يشكل لديها مشكلة طالما ستحصل على الاثنين فلا مشكلة.. الرغبة أولاً أم المال.. المهم أنها ستحقق ما استقر عليه الفكر النابع من العقل والمرتبط بالعاطفة المشوبة..

ثم تكون الصدمة والطامة الكبرى حينما يجري الحوار بينهما.. فهي تقوم بتجربة فريدة في حياتها.. لقد سبق لها أن مارستها ولكنها كانت البداية ومع شخص تعرفه.. ثم كان المكان ليس بغريب عنها.. كذلك لم تكن تتوقع نهاية مأسوية.. بل كانت ترضي طرفاً آخراً حتى لا تفقده دون أدنى شك في أن الأمور سوف تتخذ تضحية بالشرف.. هكذا كانت تجربتها الأولى دون قصد.. أما وهي تجلس في سيارة ذلك الرجل بكامل إرادتها بل كانت هي التي أقدمت على ذلك.. إلا أنها تتساءل بدهشة عن المكان الذي ذكره الرجل لقضاء مأربه "صحراء الماظة"..

حيث السكون الذي لا تصل إليه عين بشر والحرية التي لن يجد من يضايقه فيها وكأن الرجل قد مارس هذا المكان من قبل ولذلك فهو يقصده دون تفكير.. ولكن المرأة لم تكن تعلم شيئاً عن هذا المكان الذي لا تدري أقريب هو أم بعيد..

ولم تدهش من ذلك.. إنما الذي أثار خوفها هو كم من الوقت يمكن أن يقضيانه لإنهاء هذه المهمة..

إن نفيسة رغم تورطها في ذلك الطريق.. إلا أنها ما تزال ملتزمة بالعادات الأصيلة التي لم تستطع أن تكسرها.. وعلى ذلك حين يصلها رد الرجل محدداً الزمن الذي سوف يقضيانه سوياً وهو منتصف الليل وهو هنا يظن أنه يختصر من الوقت الكثير.. فهو لم يكن يقوم بالتجربة الأولى.. بل إنه قطع شوطاً كبيراً في ذلك السبيل وربما قضى الليل بأكمله مع أخريات دون أدنى اعتراض لأن الوقت له مقابل والمرأة هنا تود قضاء وقتاً طويلاً طالما أنها سوف تحصل على المزيد من المال ولأن هذه المرة الأولى التي تجمعهما.. فهو هنا يحدد لها الوقت وكأنه يساومها على النتيجة المرتقبة فإن هي أتت ثمارها كما يرغب فيمكن في المرات الأخريات يزيد من الوقت الذي يقابله المزيد من الثمن هذا كان منطق الرجل..

إلا أن نفيسة تجد في الزمن كارثة يمكن أن تتهددها.. منتصف الليل كيف؟! وأمها وأخواها ماذا يكون موقفها معهم وما العذر الذي يمكن أن يقدم..؟! إذن فالصفقة خاسرة من الناحيتين ولا تساوي قيمة التضحية التي ستنتظرها.. وتتوسل إلى الرجل بذل المنهزم وتستحلفه وترجوه أن يختصر الوقت إلى ما قبل العشاء أي أن يكون الزمن ساعة على الأكثر.. وإلا.. فلا..

إن كليهما كان يخطط من وجهة نظره التي تتنافى تماماً مع الوجهة الأخرى.. والرجل لا يكاد يصدق ما تقول المرأة.. قبل العشاء ليس هذا أسلوب فتيات الليل.. وقد أطلق عليهن فتيات الليل لأن ذلك الطريق لم يكن النور أو النهار يصلح له.. أما الليل فظلمته تجعل تحقيق كل شيء من هذا القبيل ممكن ومتيسر.. إذن لماذا تتعجل المرأة وتختصر الوقت هكذا..؟! ولكنه أيضاً.. ولأنها المرة الأولى التي لا يريد أن يفقدها فيها يوافقها.. ولكن بشرط وهو سؤالها عما تخاف إن صنف النساء اللاتي يمارسن هذا النشاط لا يخشين شيئاً أما وقد هاله تحديد الزمن هكذا فهو يريد أن يتحقق منها عن سبب ذلك..

وتجيب نفيسة ومايزال كل منهما له منطقه ورؤيته التي من خلالها يحدد ما

يريد.. وتكون الإجابة بالنسبة له مدهشة.. فهي تخبره عن سر خوفها بكلمة "أهلي" إذن فهي تخشى أهلها.. وبمنطقه أيضاً وبتجاربه العديدة فهو يستنكر ذلك الرد ليلقيها بقذيفة تقطع أوصالها.. حينما يرد عليها بإجابة مختصرة كما أجابت هي.. فهو يقول "ألا يعلمون" بالهول تلك الإجابة في نفسها "يعلمون" إذن فهو يظنها امرأة محترفة عن جدارة.. وليس هذا فقط.. بل إنها متخذة تلك المهنة عن استمرارية فلم يكن رده إلا بهذا المعنى.. إذا كان الأهل يعلمون.. إذن فهم جميعاً أهل حرفة واحدة.. والرجل هنا في إجابته لم يكن يأتي بجديد.. ولم تجد نفيسة وسيلة تدافع بها عن نفسها لصد هذه اللطمة الدامية سوى اعترافها بأصلها وفصلها.. كي تدفع ذلك الأذى الذي لحق الأم والأخوة.. بل والأب الذي سبق أن ترك هذه الدنيا ومن علمها..

إن نفيسة برغم ما أصابها وما جرته على نفسها فهي مازالت تتعلق بشيء من الأصالة والانتساب للعائلة المحترمة رغم أنها تعلم تماماً بأن ما أقدمت عليه لم يكن ينتمي إلى الاحترام ولكن الرصيد المتبقي من الماضي مازال يعيش داخلها رغم قهر الحاضر لهذا الماضي.

ومع ذلك فهي تصل إلى نهاية المطاف وتحقق للرجل رغبته الحيوانية وتشبع في نفسها أيضاً رغبة تعيشها للمرة الأولى بإرادة وبلا أدنى خوف سوى من عامل الوقت التي تحسبه بدقة.. وتكون الهاوية التي تقبع في بؤرتها المظلمة.. فهي تحقق الرغبة في هذا المكان المظلم تماماً كما كانت البداية الأولى مع سلمان والظلام كان سمة مشتركة في تنفيذ هذه الجريمة التي كانت لها ضحية في المرة الأولى ومنفذة لها في المرة الثانية.

وهكذا وجدت هذه البداية أرضاً رحبة لا يحدها عائق لكي تواصل من خلالها مسيرتها مع الرذيلة لتحقيق ازدواجية المنفعة دون أدنى تفكير في أية عاقبة.

وإذا كانت نفيسة قد ارتضت لنفسها مثل هذه البداية.. فإن الدافع كان أصلاً نابع من عامل الفقر الذي جرها من خير مكان محدود وهو البيت.. إلى

أماكن أكثر انفتاحا بغية الحصول على الرزق المحدود للغاية ولكنه يكون دافعاً للاستمرار حياة مهددة بالتوقف.

ثم تتلو هذه الخطوة المحللة خطوات محرمة بدءاً من مراودة النفس بالتمني واتخاذ سلمان فارساً لأحلامها التي تود أن تتحقق ولو مرة ولم تتحقق واستمراراً للخوض في الممنوع والمحرم بنفس قانعة جريا وراء قروشٍ تسد بها ثغرة في الحياة.. وإشباع رغبة عاشتها مرة وكان اشتياقها للتكرار دافعاً لطلبها.

إذن فقد انتهى الأمر ولا رجعة للوراء بعد ذلك.. ارتضت نفيسة هذا الطريق.. بل وتمكنت من أن تعيش وتعايش أهل بيتها دون أدنى شك في تصرفاتها.. فهي مازالت كعهدها السابق تتحاور وتتجاوب مع الأم والأخوة إلى درجة أنها تحاور أخاها الأكبر الذي لم يكن بأحسن منها مسلكاً.. وهي ندٌّ له ولا يفطن الرجل بما آلت إليه حياة الأخت وهو الخبير أيضاً بالنساء أمثال نفيسة بل ويزيد كثيراً..

ويمضي الزمان ولا تغير يذكر في حياة نفيسة ينتقل أخوها من القاهرة للعمل بطنطا بعد حصوله على الباكالوريا.. إذن فقد انتقص العدد وأصبح الرجال واحد فقط.. حسن وله معيشته حيث لا وجود له حتى بينهم.. ثم حسين وقد هاجر إلى مديرية أخرى.. ولم يبق سوى الأخ الأصغر الذي طالما استنكر على أخته مهنة الخياطة وكأنها عار.. ولم يدر ما زودت به بالإضافة إلى المهنة الأولى الذي اعتادها لعائدها الذي كان يسري على نفوسهم بعض قسوة الظروف والفقر ولا يدري أيضاً أن ذلك العائد ملوث بسمعة أخته الوحيدة لم يسأل الأخ هذا عن مصدر القروش الكثيرة التي كانت تأتي بها ظناً منه أنها مقابل الخياطة..

مازالت نفيسة تشق طريقها بشكل معتاد وكأنها تمرست على كل منهما.. وفي نفس الوقت تزاول نشاطها العائلي بكل ما تحمل نفسها من مداعبات وتطلعات ليس لذاتها ولكن لمن حولها.. فتارة تقرر مرارة الفراق حينما يستعد حسين للسفر إلى طنطا ثم تبادر الأخ الثاني وهي تبارك له اختياره لإحدى الكليتين الحربية والبوليس حينما يقوم الأخ بعرض اختياره:

- وهتفت نفيسة بسرور

- ما أجمل هذا..

وتواصل الأخت حوارها مع الأخ مرة أخرى:

- دراسة عامين ثم تصير ضابطاً! ما أشبه هذا بالأحلام..

وتستمر في حوارها في مكان آخر:

- لا تحمل هماً من ناحيتي.. سأهبك أقصى ما يمكنني أن أهبه! (٢٣٢)

لقد تمرست نفيسة على معايشة الواقع الجديد بكل ما يحمله من مرارة الموقف وتمكنت من أن تحوله إلى سخرية تصل إلى نوع من الكوميديا الدامعة فلم تكن حياتها بعدما أصابها التغير الطارئ إلا مشاهد من مأساة..

وهي هنا في الموقف السابق تشترك في حوار يجمع بينها وبين الأم والأخ حسنين الذي يكون في موقف اختيار تعليمه العالي والذي سوف يتطلب بعض من المال يفوق ما كان في التعليم الثانوي.. ووسط ذلك كله لا يفوت نفيسة أن تشترك وتبارك اختيار الأخ لإحدى الكليتين بل وتهون عليه مدة الدراسة مادام في النهاية سيصير ضابطاً يمكن أن ينتشل العائلة من ذلك الفقر القاتل إلى حياة أخرى بعيدة عن ذلك الشبح الذي هوى بها في قاع الرذيلة.. تقرر ذلك وقد تناست موقفها الملوث مؤقتاً..

على أن نفيسة تؤكد في ذلك الحوار استمرارية البداية المظلمة.. وذلك في تقريرها بتزويده بالهبات في أكثر الحدود.. ولكن من أين لها أن تحصل على ذلك المقابل.. لقد كانت حرفة الخياطة لا تدر إلا قروشاً معدودة.. وهي تعلم ذلك جيداً.. إذن فهناك طريق آخر مشت فيه وتعاملت من خلاله مع أصناف متعددة من الرجال راغبي اللذة الحرام وتقاضت من وراء ذلك أجراً تفاوت في كل مرة حسبما قدره الراغب وهي ترى أنها يمكن أن تتخذ من هذا المسلك حرفة طوال هاتين السنتين لكي تحصل على المزيد من الدخل لكي تستطيع أن تهب أخاها الحد الأقصى من المال الذي سوف يكون في أشد الاحتياج إليه في مثل موقفه.

فهي حينما أكدت له أنها سوف تهبه أقصى ما يمكن لم يكن في حسبانها سوى الطريق الآخر.. فهي في البداية كانت تطلب الرغبة ثم المقابل ولكن والموقف قد تغير وأصبح الأخ في احتياج للمال.. فإنها إذن سوف تركز نشاطها على طلب المال أولاً ثم في المقام الثاني تأتي الرغبة أو لا داعي لها بالمرة..

في هذا الموقف تندفع نفيسة اندفاعاً لم يكن أمامها أن تقف أو أن تتقهقر.. فمستقبل الأخ يتوقف عليها وحدها.. فالأخ الأوسط يعيش في طنطا ولا يكاد مرتبه يكفيه وقد قطع المساعدة التي كان يبعثها من قبل.. ثم الأخ الأكبر لا وجود له بالمرة.. ثم معاش الأب لا يكاد يكفي القوت الضروري.. إذن فلن يبقى سواها وما تحصل عليه من عائد.. سوى من مهنة الخياطة المحدودة.. أو من ثمن اللذة التي كانت تحصل عليها وتهبها في نفس الوقت لطالبها وكأنها كانت عاملاً مشتركاً ما بين الآخذ والمعطي.. ولكن الوضع يتغير حينما تجد نفسها في حاجة إلى المزيد.. إذن فإن المال هو الأساس هنا والحصول عليه كان هو الهدف الأوحد.. أما رغبتها هي فلم تكن ذات أهمية..

وعلى ذلك تتصاعد البداية دفعة واحدة ولم يكن أيضاً سوى الفقر والحاجة هما جناحي هذا التطور والتصاعد.. الفقر أولا.. والفقر ثانياً.. والفقر إلى النهاية.. إذن هذا المارد كان المحرك أمام تلك المرأة.. وقد هوت ولم تستطع أن تصمد أمام هذا التيار الجارف إلى الهاوية التي لم يكن لها أن تجد من يأخذ بيدها بعدما أخفقت في إصلاح ما أفسده سلمان في المرة الأولى.. وعلى ذلك فهي مستمرة في طريقها ولم ولن تجد سوى ذلك منقذاً للطمات الأيام القاسية والأم أمام كل ذلك لم يكن لها أن تغير شيئاً..

وأمام الوعد الذي قطعته نفيسة على نفسها أمام الأخ حسنين الذي بدأ في التحرك الجريء في محاولة سباق مع الزمن لكي يضمن لنفسه مقعداً في الكلية الحربية.. يلجأ إلى صديق والده ذي المركز المرموق لكي يمد له يد المساعدة والوساطة.. إذن فقد بدأ أولى خطواته نحو مستقبل باهر.. وكانت عليها أن تبحث لها عن طلاب الرغبة دون انتقاء.. ففي نفس اللحظة التي يكون الأخ في قصر البيك.. تكون هي في ميدان عام تعرض نفسها على أول طالب مادام المقابل سوف

يكون في يدها في النهاية.. ولم يكن يعنيها من الرجال شيء شاب أو شيخ مخمور أو مازال بوعيه.. إنها أصبحت تبيع سلعة لمن يدفع دون أن تسأل عن المشتري..

ويؤكد الكاتب هنا على المهنة دون النظر لمستوى الحسن أو الجمال كما فعل في زقاق المدق من خلال حميدة.. وباعتراف الرجل الهرم الذي استجابت له نفيسة دون تردد أو تمنع أو خجل.. فهو يقرر آمامها بأن المرأة لابد وأن تحمل جمالاً في جزء ما من جسدها حتى ولو كان الشكل وسيماً فإن ثمة جمال يكمن داخلها.. إذن فهي قد وصلت إلى درجة العطاء لمن يرغب فهي تبيع جزءاً من الشرف أو الجسد وهذا وحده هو صفة الجمال عند أصناف من الرجال يكونون غالباً في وعي مفقود.. إذن فهي أيضاً أصبحت تتعامل مع رجال فاقدي العقل أو الوعي مادامت في نهاية المطاف سوف تحصل على مقابل مرتفع.. وهي لم تكن في هذا الموقف مع الرجل الهرم في سيارته التي يغادرها سائقها وهو يعلم ما يتم داخلها.. كانت آملة في أن يهبها الرجل الشيخ مقابلاً يوازي الفرق بين عمر كل منهما على الأقل وهي التي وافقت على أن ترافقه طمعاً في هيئته..

ومع ذلك فلم يكن الموقف سوى مشهداً يغلب عليه السخرية المأسوية فالرجل بعد أن يقضي منها حاجته التي لم تكن ترتقي إلى مصاف الرجال وتحت إلحاحها لكي تعود من حيث أتت لا يمانع الرجل.. ويقذف لها بقطعة فئة العشرين قرشاً.. ولم تكن نفيسة قد فكرت في هذا المبلغ الزهيد خصوصاً من رجل مثله.. وكذلك لاحتياجها إلى الكثير من ذلك لكي يمكنها أن تفي بوعدها..

"ودس يده في جيبه وأخرجها في تكاسل ثم ترك ريالاً يسقط في حجرها فتناولته في دهشة وانزعاج وحدثته باستنكار وتساءلت:

- ما هذا؟

فقال بجفاء مباغت وعيناه تعكسان بريق الخمر:

- نعمة كبرى! إذا لم ترضِ به عاد إلى موضعه السابق إلى الأبد..

فقالت بحنق:

- أظن مقامك أعلى من ذلك بكثير..(٢٤٧)

ومن هذا الحوار يمكن أن نصل إلى تغير في حياة نفيسة.. لقد كانت في بادئ عهدها بعد البداية مباشرة تلتقط ما يقذف لها من القطع المعدنية بدءاً من نصف الريال دون أن تناقش أو تتفوه بلفظ واحد.. كانت آنذاك تطلب الرغبة أولاً.. ثم تأخذ المقابل ثانياً.. ومادامت قد حصلت على المتعة فالمقابل يرضيها أياً كان قيمته وكانت أيضاً في احتياج شديد إليه.. ولكن الوضع هنا اختلف مع اختلاف الظروف الجديدة.

لقد خرجت من بيتها آملة أن تعود بمقابل ذي قيمة لكي تعكس ذلك على الأخ الذي بدأ يشق طريقاً جديداً يحتاج إلى المزيد من المصروف ولم يكن ذلك يتسنى لها أن تحققه إلا من الدخل الذي يؤول إليها من زبائن الليل.. وهي إذن لم تكن تنتظر من الرجل هذا المبلغ الذي يعد ضئيلاً بالقياس لهيئته هذا من ناحية.. وكذلك فإنها كانت تطمع في مضاعفة الأجرة مرة أو مرتين أو يزيد.. أما وقد قذف بهذه القطعة فهي تستنكر منه ذلك.. وتساومه في القيمة.. ورغم أنه يرد عليها بإجابة ملؤها الإهانة إلا أنها ماتزال تنتظر المزيد.. وفي النهاية لا تجد سوى أن تقبله مرغمة فهو أحسن من لا شيء.. إذن فإن نفيسة وصلت إلى أن اتخذت من ذلك الطريق تجارة ولا أكثر..

على أن المرأة بمنطقها الجديد كانت تحت تأثير الحاجة الملحة التي فرضتها عليها الظروف الجديدة باختيار حسنين كلية عسكرية تحتاج إلى مصروفات شخصية لم تكن مهنة الخياطة تحققها لها.. وهي من ناحية أخرى وجدت نفسها مسئولة مسئولية مباشرة عن توفير السبل التي تهيئ الرضا والسعادة له.. والأم لا حول لها ولا قوة.. والأخوان لا يشعر أحدهما بشيء وهي الوحيدة التي تعيش الموقف.. فكان الاختيار الطارئ.. اختيار المهنة التي تعود منها بكم لا بأس به من المال مادامت سوف تعطي الراغب ما يطلبه ولو على حساب تحملها الجنس.. وعلى ذلك فكان الرجل الذي وصل من الشيء أرذله.. وربما كان الشكل لا يناسب ورائحته كريهة بسبب الخمر وأشياء أخرى.. ومع ذلك فهي لا تمانع.. بل إنها ترحب به من الوهلة الأولى حينما رأته بسيارته وسائقه.. إذن فهو سوف يمنحها

مقابلاً محترماً.. ولكن ما توقعته لم يكن بقريب من الواقع أو الحقيقة في شيء.. قطعة من فئة العشرين قرشاً.. أو لا شيء..

وتستمر نفيسة على ذلك المنوال وكأنها ارتضت هذه الحياة.. نعم لقد اعتادتها ولكن هل بإرادتها؟ لم تكن لها إرادة في الاستمرار بل كانت مرغمة.. اتسعت حياتها بعد دخول الأخ الأصغر الكلية الحربية.. ازداد الطلب عن ذي قبل.. احتياجات حسنين المفاجئة حتى يمكنه أن يتساوى مع زملائه أولاد الزوات.. كان لابد له أن يرتفع على حساب الأخت وما تحصل عليه سواء من الخياطة التي لم تكن تدر إلا القليل.. ثم من الراغبين في قضاء المتعة الحرام والتي كانت تحقق لها المزيد من الدخل.. وكان عليها إذن الاستمرار بلا توقف.. تهب نفسها لأي طالب طالما سوف يدفع ما يحافظ للأخ على عليائه.. يعلو الأخ على جسد الأخت.. ولكن ما البديل؟! إذن فالمرأة هنا لم تواصل سيرها في هذا الطريق إلا مرغمة ومع ذلك فلم تكن أبداً تعكس هذا الواقع المر في حياتها المعيشية في وجود الأم أو الأخ الذي كان زائراً كل أسبوع ليحصل على ما يشتهي سواء من المأكل أو النقود التي ينفقها على ملذاته البسيطة كالسينما مثلاً.. كانت نفيسة تعيش بازدواجية من حيث شخصيتها.. فهي في الخارج مع طلابها تجاوبهم بما يريدون ويطلبون خوفا من فقدهم وهذا يعني فقد ما تحصل عليه.. والذي يتحول في النهاية إلى إسعاد الأخ وإكباره مع نفسه وزملائه..

كانت تعيش وسط الأسرة دون أن يلاحظ عليها أحد أي تغير بل كان المرح سمة من سمات حوارها مع الأخ الذي أراد أن يقضي يوم الجمعة معهم بشرط أن يتواجد غذاءً فاخراً.. وتحقق نفيسة له ما أراد.. ثم يتطاول طالباً أن يرى كنافة بالسمن. وهذا يكلف الكثير.. ومع ذلك تعده الأخت بتلبية الرغبة إلى أن يصل الحوار إلى:

- وستحلي بالكنافة كما تشتهي!

فقال الشاب بعد تردد:

- لو كنت وقحاً لسألتك أن تحشيها بالفستق والبندق!

- ولكنك لست وقحاً والحمد لله..

هكذا تهربت بالمزاح..(٢٥٧)

كانت علاقتها داخل الأسرة هكذا لا تخلو من مداعبات وسخرية تدعو إلى كوميديا خفيفة بالرغم مما تحمل داخلها من مرارة تستمر مع كل طالب رغبة.. فقد تغير الحال بالنسبة إليها وأصبحت تجد في مزاولة مهنتها الجديدة صعوداً مستمراً إلى هاوية سحيقة.. وهذه كانت شخصيتها التي تتعامل بها سواء داخل الأسرة أو خارجها.. والحوار السابق يجسد شريحة من التعامل المزدوج الذي يصدر عن نفيسة.. فهي في الخارج تكون فتاة ليل متمرسة تلتقي برجال يختلف كل منهم عن الآخر في أشياء كثيرة إلا شيئاً واحداً وهو المقابل في النهاية.. ولكن لكل منهم مزاج خاص وتركيبة متناقضة عن سواه.. سواء في الشكل أو الأخلاق المنحطة أو تداول اللغة أو الهيئة.. الخ.. أما في الداخل فهي إنسانة مختلفة تماماً تتطاول باللسان وتسخر من كل شيء حتى بهية خطيبة أخيها لا تسلم من سخريتها.. يمكن أن يكون ذلك جزءاً من عدتها التي فطرت عليها ويمكن أن يكون شطرا من الغيرة وقد سبقتها إلى تحديد مستقبل نظيف ومع ذلك فهي تتعامل مع الأخ حينما تلبي أكثر من رغبة في انتقاء أصناف الطعام الفاخر والحلويات النادرة على الأقل في طبقتهم المعدمة.. فهي إذن تستجيب لنداء معدته النهمة.. ولم يكن ذلك إلا من حصيلة ليال قاسية والتعامل مع نوع من البشر لا يعلمون عن الذوق شيئاً.. فهي تتحمل منهم أكثر من القسوة مادامت ستحصل على النقود.. النقود التي تلبي طلبات الأخ منها سواء في المأكل المخصوص أو المصروف المتميز.. ومع ذلك فهي تهب أسرتها من الحوار ما يؤكد شفافيتها واستمرارية بدايتها الأولى المبكرة حينما كانت في كنف الأب.. لم تتغير لحظة إلا حينما تختلي بنفسها لتتأمل الحياة بكل أبعادها.. سواء في الماضي البعيد أو القريب أو الواقع المعاش وما آل إليه مصيرها والغموض المخيم على مستقبلها..

وتستمر الحياة رتيبة كل يقضي فيها ما خطط له.. الأخ في سبيل أن ينهي دراسته لاستقبال حياة جديدة وهو في زي ضابط.. ونفيسة تجاهد في طريق الظلام حتى تدخر المال اللازم للصرف منه سواء على احتياجات الأسرة أو

احتياجات الأخ الصغير.. حتى أصبح ذلك الأخ ضابطاً بالفعل.. ورغم أنه ينكر على أخته العمل الحقير كما يحلو له أن يصفه.. إلا أنه لا يعلم شيئاً عن العمل الآخر والذي يعد أحقر بمراحل ولأن نفيسة مازال داخلها بعض شوائب الماضي السعيد.. فهي ترحب بشدة حينما تعرض الأم عليها ترك العمل.. وهي هنا تعني الخياطة لا شيء سواها.. ترحب لأنها أصبحت أخت لضابط له مركزه توافق الأم وهي لا تدري أي عمل تتركه؟! ولكنها ترضخ لرغبة الأخ فقد تعبت وضاقت بها الحياة في كلا الطريقين..

لقد منحت نفيسة بالكثير بدءاً من عملها كخياطة ثم انخراطها في طريق آخر بعد نقطتها سعياً وراء الرغبة والمال.. ثم المال والرغبة.. ثم المال فقط حتى تدخر ما يصنع الأخ به مستقبله.. وقد صنعه..

أصبح الآخ ضابطاً.. أراد أن يغير كل شيء.. ولم يكن لكل شيء أن يتغير وهو يعلم ذلك.. والأم تقف منه موقف المرشد.. ولكن قوة الشباب تعلو حكمة الشيخوخة.. وتقف نفيسة بينهما.. لقد استشعرت إحساس التغيير.. فهل يمكن لها أن تتجاوب معه؟!.. يمكن أن تحقق منه شقاً واحداً.. وهو ترك العمل كخياطة وتبقى في البيت كسيدات المجتمع الراقي.. هذا يمكن وبيدها.. بل إنها تسعى إليه ولكن الحاجة هي التي كانت تعوقها.. أما الآن وقد أصبح الأخ ضابطاً عظيماً سوف يحصل على راتب محترم للغاية.. فإنها سوف تجد الراحة في الحياة الجديدة.. ولكن العمل الآخر الذي قطعت في دربه شوطاً كبيراً حتى أصبحت تعتاده.. هل يمكن لها آن تتركه.. وإذا تركته فهل يتركها ذلك العمل أو المهنة.. إنها يمكن أن تتركه.. أو أن تكون في غنى عن عائده بعدما هيأ الأخ لهما حياة رغدة.. ولكن هل يمكن للجسد الذي تعود على لذة لدرجة إدمانها أن يهجر ذلك الطريق.. هذا هو السؤال الذي كان يؤرقها..

ومع ذلك فلم تخل من مداعبات.. بل إنها تقف من الأم موقف المنصح والمرشد حينما تصل الأم إلى مرحلة التأزم بسبب طموحات الابن الذي يريد أن يقبر كل ماض حتى رفات أبيه.. ورغم ما تحمل نفيسة من أثقال تنهك كاهلها حتى بعدما انتقلت إلى حياة جديدة تهون على الأم وتحمل عنها متاعبها:

"ودخلت الفتاة مبتسمة وكانت لا تدري تلك الأيام إلا مبتسمة مستبشرة.. واستبانت في وجه أمها سهوما فاقتربت منها وقالت مداعبة:

- تخلي يا أماه عن هذا الجد الذي لا داعي له فقد انتهت متاعبنا. (٢٧٥)

لقد حملت نفيسة داخلها مشاعر تناقضت في صراعات عنيدة وتغيرت في لحظات من النقيض إلى النقيض.. فهي تتحول من مأساة تمزق إحساساتها إلى ملهاة يتولد منها مداعبات تثير ارتياح الطرف الآخر فهي هنا في موقف مع الأم التي لم تكن تحتمل متطلبات الابن المستمرة والتي لم تر فيها منطقاً سليماً ولم تقوَ على عمل شيء وهي تراه وقد أصبح عائل الأسرة بدخله الكبير وأمام ذلك تقف مكتوفة الأيدي وينعكس هذا الشعور على كبريائها وهي التي كانت المهيمنة الوحيدة في هذا البيت قبل أن تنتقل إلى المسكن الجديد حتى بعد أن خرجت نفيسة للعمل كانت هي سيدة البيت.. أما الوضع الجديد فقد رأت الأوامر الصادرة من الابن الذي كان يود إحداث انقلاب سريع لكي يحدث تغييرا في كل شيء.. كانت الأم أمام كل ذلك تقف منه موقف المرشد ولكنها أخيراً تصل إلى حالة إحباط.. مما جعل الابنة تتدخل وتواجهها وهي التي تحمل في داخلها تلالاً من الهموم التي لا ولم تزول.. وتهدئ من روع الأم بل وتطلب منها أن تترك وتنسى المواقف السابقة التي كانت تتمثل فيها الجدية ويمكن أن يكون لها عذرها حينئذ.. أما الآن وقت وضحت فيه الرؤية واستقام الحال وأصبح الدخل ممتازاً.. فلا داعي لهذه الجدية.. وتصرح الابنة أيضاً بأن المتاعب التي طالما عاشوها وأحسوا مرارتها قد زالت حينما زالت أسبابها ولم تكن هذه الأسباب سوى الفقر.. الفقر وحده الذي وصل بهم قبل تخرج الأخ إلى هذه النهاية والى احتمال الصعاب وما فوقها وما فقدوه سواء من المتاع المنزلي الذي باعوه قطعة تلو الأخرى.. أو المتاع الذي لا يقدر بمال والذي فقدته هي وحدها بلا ثمن.. انتهت المتاعب حينما توفر لهم المال.. ولكن هل يحقق ذلك المال عودة كل شيء فقط.. يمكن أن يعيد الأثاث ولكن هل يعيد المتاع الذي سقط؟!

ومع ذلك كانت نفيسة مع الأم مبتسمة هي التي تحثها على التغيير في

الحياة.. فكم كانت هذه الابنة حمالة قسوة تستطيع أن تتحكم فيها لتبرز النقيض ثم تعود إلى سابق عهدها ثم يكون التغيير.. ولكل موقف اللون الذي يشكله..

إن نفيسة توافق الأم في ترك العمل.. ثم تحاول أن تنقي الجو العائلي من أية شائبة حتى يصفو ويحل الود في البيت الجديد وتحاول أن توفق ما بين الأم والأخ ولا تكاد تصل إلى غايتها بالاشتراك في الحوار تارة مع الأم وأخرى مع الأخ وهي تظن أنها قد أصبحت في مأمن من أي خوف ممكن أن يتهددها.. ولكن الحوار نفسه يخلق لها موقفاً حرجاً من الأخ دون أن يقصد.. ولكن مجرد الكلمات الموجهة لأخيه الأكبر تكون بمثابة خنجراً غرس في قلبها.. تحس هي ذلك دون أن تقدر على رد كلمة واحدة مما قال الأخ في حق أخيه حسن حينما تدافع هي عنه:

- مهما يكن من أمر أخينا حسن ففضله لا يمكن أن ينكر..

تدارك الشاب قائلاً:

- لست في حاجة إلى من يذكرني بهذا.. وعلم الله أني أحبه.. ولكن لا حيلة لي إذا قلت أن سلوكه في الحياة ليس مما يشرف. (٢٧٦)

هكذا تأزم الموقف وهو يفرض نفسه ليكشف لنفيسة عن حقيقة رأت أن تتناساها في هذا الجو الذي ظنته محققاً الأمن لحياتها.. فهي تحاول أن تجمع شمل الأسرة وأن تجعل الحب رابطاً بين الأخوة وأن تنزع من الأم همومها.. أي أنها كانت في هذا الموقف بمثابة المصلح لأفراد أسرتها.

إن حسنين من موقع وظيفته الجديدة يخشى على مستقبله من مجرد ذكر حسن الأخ الأكبر الذي يعرف عنه الكثير.. في حين أن نفيسة تكون في موقف المدافع عنه وهي تعلم أيضاً عن حسن نفس ما يعرفه حسنين.. ولكنها أيضاً تعرف شيئاً آخراً.. ربما يعرفه حسنين ولكنه يتناساه.. تعرف كيف تسنى للأخ الأصغر دخول الكلية الحربية وهي تقصد بالفعل مصاريف الكلية التي دبرها حسن بمعرفته سواء أكان ذلك المال حلالاً أو حراماً فقد قبله حسنين وبه كانت بدايته التي وصلت منها ضابطاً.. تدافع نفيسة عن أخيها مهما صدر منه.. وكأنها تلتمس لنفسها عذراً.. ولكن الرد يصدر من حسنين مخيباً لآمال الأخت.. فهو يقرر في

بداية حواره شهادة طيبة في حق أخيه يختمها بكشف النقاب عن السلوك الذي لا يشرف وهذا وحده ما جعل نفيسة تتلقاه كقذيفة من مدفع صوب نحو مقتلها فهل سلوك حسن في الحياة غير مشرف.. إذن فأي سلوك يقصد.. ومهما بلغ بالرجل من اعوجاج فهل يمكن أن يصل إلى سلوكها هي؟! إنها كارثة بالنسبة لها.. إذا كان الضابط يخشى على مستقبله من سلوك حسن وهو رجل يمكن ألا يعيبه شيء.. إذن فكيف يكون حالها معه إذا كشفت بعض من حقيقتها؟!..

لم تكن الأخت هذه تستقر على حال واحد.. كانت متقلبة ليس عن قصد ولكن الموقف هو الذي يخلق لها نوعية المزاج.. ورغم ذلك فإنها تجتر همومها في داخلها دون أن يدرك أحد من أفراد أسرتها شيئاً.. تشاركهم أفراحهم بجو مليء بالمفارقات ثم تختلي بنفسها لتعيش لحظات المرارة بمفردها..

ورغم انتقالهم من تلك العطفة التي شهدت طفولتها وصباها وشبابها وضياع مستقبلها.. كل ذلك شهدته العطفة مع جيرانها وصديقاتها.. ثم روادها الذين عاشت شهوراً طويلة بما أخذته منهم مقابل شطر.. شرف والذي باتت لا تقوى على مفارقته طويلاً.. فهي بعد أن هجرت العطفة تجد نفسها قد اطمأن قلبها بعض الشيء.. ولكن المشكلة أصبحت تتشكل في كم من الزمن يمكن أن تتحمل الوحدة وتكتم الرغبة التي اعتادتها كأنثى إنها أصبحت لا تحتاج المقابل كي تعيش ومعها أفراد أسرتها ومصاريف الأخ الأصغر.. لم يعد ذلك يشكل لها أية مشكلة.. ولكنها في النهاية لا تستطيع أن تتحمل حياة بلا إشباع رغبة.. في ذلك الحي البعيد مصر الجديدة ويزاد على ذلك حوار الأخ الأصغر الذي أصبح بمثابة أوامر يجب أن تنفذ وهو الذي يقوم بالتمويل في الحياة الجديدة.. وعلى ذلك فأمره مطاع ولكن كيف لها أن تطيع أمراً يجعلها تهجر كل شيء حتى..؟!

فالأخ بعد انتقالهم في المسكن الجديد يريد أن يحطم الماضي بكل أبعاده فيصدر الأمر للأخت على وجه التحديد:

فقال لها الشاب بقلق:

- يا حبذا لو أهملت صديقاتك الأخريات أيضاً؟

فاضطربت نفس الفتاة، ومع أن الانقطاع عن العالم الخارجي كان من أمانيها إلا أنه كان أمنية تعجز عن تحقيقها دائماً، ولا تفتأ تساق إليه بقوة بغيضة آسرة.. فتساءلت في إشفاق:

- وهل أبقى حياتي سجينة؟! (٣١١)

لم يكن حسنين يعلم الحقيقة أو حتى جزءاً منها.. إنه يريد أن يبدأ حياته كضابط في ذلك المسكن الجديد بنظام جديد يتولد منه بداية تحمل في داخلها كل جديد.. ومن حيث إن الأم قابعة في المنزل فلا خوف منها.. لذلك كان رجاءه إلى الأخت.. فهو يريد منها أن تقطع علاقتها بكل إنسان كانت لها صلة به في الماضي وأن تبدأ صفحة حياتية جديدة أي أنها تختار صديقاتها من مصر الجديدة وليس من عطفة نصر الله.. والفرق هنا كبير كناحية اجتماعية.. هذا كل ما كان يتمناه من أخته.. على أن انعكاس هذا الأمر أو الرجاء بمعناه الحرفي لم يكن يشكل في حياتها أية عقبة.. فمن هؤلاء صاحباتها التي تريد لعلاقتها معهن أن تستمر؟!

لا أحد يمكن أن تستبقي على صداقته حتى أقرب الناس إليها وهي بهية جارتها في نفس البيت وخطيبة أخيها وفي نفس الوقت لم تكن تبدي نحوها أي اهتمام.. إذن فهجرها لصديقاتها لم يكن مشكلة.. ولكن يوجد جانب آخر يملأ داخلها حنيناً يمكن أن تتناساه لأيام ولكن ليس إلى الأبد وهو نفس الوقت ماضي بكل المعاني.. ماض اقتحم حياتها وعشش داخلها وأدمنته لاحتياجات مزدوجة وأصبح يشكل في حياتها نداءً قوياً.. إذن فطلب الأخ لها كان له شقين الأول تنفيذه من السهولة يمكن أن يتحقق.. أما الشق الآخر وهو الذي لم يكن الأخ يعلم عنه شيئاً فإن سيطرته عليها كان أقوى منها وهو الأمر الذي لا تستطيع معه إخماده وبالتالي تجد في تنفيذ أمر الأخ صعوبة.. فمعنى هجرها لصديقاتها لزومها السكن على الدوام مع الأم ولن تتحرك خارجه إلا بصحبة أمها.. والخروج بغية اكتساب الرزق أصبح أمراً غير وارد بعد تحسن أحوالهم المعيشية إذن فسوف لا تسنح لها فرصة الخروج.. وهو الأمر الذي سيحرمها الالتقاء مع طرف آخر لإشباع رغبة فقط.. وهذه كانت بالنسبة لها مشكلة.. وعلى ذلك فهي لا تعترض على أمر الأخ.. ولكنها تسأل عن منفذ يمكنها من لقاءات مستقبلية.. وسؤالها هنا يشير إلى فتح

باب القبول للسماح لها بالخروج ولو كل فترة.. فهي تسأل هل تعيش حياتها بين جدران أربع كالسجين تماماً.. وفي هذا السؤال انتظار تصريح بالخروج مادامت لن تلتقي مع الماضي الذي أشار إليه الأخ.. وكان لها ما أرادت بعدما يصرح حسنين من أن خوفه الذي يؤرق حياته هو أن ينشأ زوار من عطفة نصر الله ويلتحم الماضي بالحاضر وهو الأمر الذي هرب منه الأخ ولا يريد له العودة.. وفيما عدا ذلك فالأمر هين.. إذن فقد انفرج التأزم بالنسبة لنفيسة ووجدت باباً مفتوحاً يمكن أن تمر منه في أية لحظة لتنال بغيتها..

لقد وصلت نفيسة منذ هذه اللحظة إلى قمة البداية.. أو نقل إلى نهاية مرحلة لتبدأ من جديد ببداية لها شكل مختلف عن تلك البداية الثانية والتي كانت بمثابة مسلك للحصول على المال الذي لم تكن الحياة تستقيم بدونه.. أما الآن وقد استقرت الأمور على خير حال.. فإنها سوف تبدأ من جديد.. بداية لها مذاق خاص.. بغية إشباع رغبة مكبوتة لها نداءات قوية أقوى من أن تتحملها دون أن تحققها.. إذن فهي السقوط الحقيقي وامتهان الرذيلة كحرفة أو لذة حيث إنها لا تنتظر مقابلاً حتى ولو تقاضت فالمال المدنث أصبح عادة في تعاملها فقد اعتادت عليه ولن ترفضه مادامت تحقق رغبتها الأساسية.

وتعد هذه البداية أولى الخطوات نحو الهاوية السحيقة التي لا رجعة منها ومما لا شك فيه أن الخطوة الأولى في هذه المرة لن تقتصر على المحاولة.. بل سوف تتعداها إلى اختراق أية حواجز يمكن أن تعترض مسيرة الرغبة مهما كانت الظروف.. فأنى لها أن تتذوق نشوة عابرة في ظلام الشريعة والقانون وتقلع عنها!!

واستمراراً لتطور الأحداث والتي تكون نفيسة فيها طرفاً.. ومن منطلق النظرة القاتمة للحياة بوجه عام.. والجنس اللطيف بوجه خاص وهو الجنس الذي تنتمي إليه من بعيد ولا يربطها به صلة صادقة.. فهي ترى أن نهاية الأنثى تؤول إلى ارتباط رسمي يبارك من الجميع.. وهذه سنة الكون في الخلق أو القاعدة الكبيرة.. ولأن لكل قاعدة استثناء بالإيجاب أو السلب.. فهي أول من ينطبق عليها هذا الاستثناء بالسلب من تلك القاعدة.. فهي كأنثى.. وكانت منذ زمن ليس ببعيد فتاة بكر.. لن تحظى من قريب أو بعيد بهذا الشرف الذي طالما تخيلته مع عظماء

القوم في الخيال.. ثم مع صعلوك عطفة نصر الله في الحقيقة ولم يتحقق.. بل خرجت من هذا التخيل خاسرة كل شيء.. وهذا بالنسبة لها نهاية أمل يمكن له أن يجد باباً موارباً للحصول على نهاية سعيدة.. إذن فهي تنظر إلى عالم المرأة بعين ملؤها كرهاً.. وهذا يتضح حينما تشارك أسرتها الحوار.. بعدما يخطط حسنين من طرف واحد لفشل إتمام خطوبته رسمياً حينما ينفرد مع بهية التي تقف منه موقفاً متشددا للخروج بنتيجة واضحة.. في نفس اللحظة تتفق الأم مع والدة بهية اتفاقاً نهائياً على إتمام تلك الخطوبة.. ويحدث التعارض في الرأي والرغبة ما بين الابن والأم والأخ حسين وتشترك نفيسة في الحوار لينعكس شعورها العدواني نحو بنات جنسها في هذا الموقف.. فبينما يدافع حسنين عن وجهة نظره التي منها اتخاذ قراره وتعترض الأم والأخ في جانبها من الاعتراض.. حتى يصل حسنين إلى إبراز تخوفه من إتمام ذلك المشروع وليس له معنى سوى ذلك.. فهو يقول:

- نحن فقراء.. وبهية في حكم الفقراء كذلك، وأخاف إذا مت قبل نهاية الرحلة - كوالدنا - أن أترك أبنائي لقساوة الحاجة كما تركنا.

وهتفت نفيسة بحماس قائلة:

- صدقت

ثم تضيف نفيسة في نفس الموقف تعليقاً على الحوار القائم بينهم جميعاً:

- لا خوف على بهية.. ستتزوج اليوم أو غداً..

ثم تضيف ردا على أخيها أن ذلك الحكم الذي أصدرته يمكن أن يصدر على أية فتاة حي إنه قاعدة:

- لا يصدق على كل فتاة!.. والدليل على ذلك أنه لا يصدر على أخت حضرتك..

وخفف تهكمها على الموقف العام. (٣١٩-٣٢٠)

لقد كانت نظرة نفيسة للمرأة.. أو لنقل للفتاة والتي كانت واحدة منهن نظرة سوداء.. لأنها ترى فيهن أملاً سوف يتحقق إن عاجلاً.. أو آجلاً كما أقرت رداً على

أخيها.. هذا الأمل بالنسبة لها كان شيئاً مفقوداً وعلى ذلك كان الشعور المشوب بالغيرة يتملكها.. هذا الشعور لم يكن وليد اللحظة في ذلك الموقف السابق.. بل كانت له جذوراً سابقة حتى قبل أن تفقد عفافها.. حينما التقت مع أول زبونة خارج البيت ورأت منها ما رأت مع خطيبها والتفاهم والتجانس والموقف الملتهب غراماً في وجودها.. يمكن أن يكون ذلك المشهد بداية اعتراض نفيسة الفتاة التي بلغت ثلاثة سنوات بعد العشرين ومازالت غير مطلوبة وما يصغرها بسنين كثيرة يتهيأن لاستقبال حياة عائلية..

وإذا كانت هذه بداية الشعور بالرفض أو الغيرة الإيجابية.. إلا أنها تصطدم مرة أخرى ببهية التي يرتبط بها أخيها وهو مازال طالباً وهي تصغره سناً.. ويمكن أن تحسب هذه الغيرة بالإيجابية أيضاً.. ولكنها حينما تلتقي بابنة البقال التي سيتزوجها سلمان بعدما فعل فعلته القاتلة تنقلب هذه الغيرة إلى الشكل السلبي.. غيرة قاتلة.. ومن هنا بدأت الكراهية لبنات جنسها تملؤها لحصولهن على ما لن تستطيع هي الوصول إليه والسبب داخلها وليس خارجها كما كانت تدعي سابقاً.

وعلى ذلك فهي توافق حسنين في رفضه إتمام خطوبته لبهية لهذا السبب ولأسباب أخرى منها أنها توافق الأخ من حيث المحصلة النهائية التي يفجرها وهو موته قبل أن يمهل لتربية أولاده وتكون النتيجة تكرار المأساة التي عاشوها.. وإن كانت نفيسة تقنع برأي حسنين فهي تعيد حسابات ماضية.. فسبب موت الأب لم يخسر أحد في الأسرة إلاهي.. حسن الأخ الأكبر كان بعيداً وحياته سواء في وجود الأب أو بعد فقده اتخذت شكلاً واحداً يمكن أن يكون قد تغير ولكنه في نفس الاتجاه.. الأخ الأوسط نال شهادته وتطورت حياته إلى الأحسن بعد أن حصل على الوظيفة.. الأم رغم ما عانت وقاست إلا أنها في النهاية قد انتقلت إلى مسكن راقي.. ثم أخيراً الأخ الأصغر عرف من أين يؤكل الكنف وهاهو ضابطٌ مرموق المركز.. هذه هي العائلة بعد موت الأب.. أما هي فلا سبيل لتكرار شريط أحداث الماضي.. فالحاضر والواقع خير شاهد على مدى التغير الذي طرأ في حياتها.. لقد كانت هي الشخص الوحيد الذي خرج من هذه المرحلة بسبب موت الأب خاسراً.. وأيما خسارة.. لا.. ولن تعوض. فما فقد قد تلاشى إلى غير رجعة..

وعلى ذلك فهي ترد على حسنين مصدقة إياه على حواره وقد كسبت نقطتين إحداهما تحقيق رغبة مكبوتة داخلها تولدت منها كرهاً لبنات جنسها ثم الخوف الشديد على تكرار المصير الأسود لأحد أبناء.. أو بنات أخيها لو قدر له أن يموت قبل إتمام رسالته.. وهي لا.. ولن ترضى لأحد أفراد أسرتها أن يمر بذلك الطريق المهلك..

وبالرغم من ذلك فهي أي نفيسة تطلق مصداقيتها على قرار الأخ من منطلق الغيرة والخوف من تجربة مرت بها وتحملت وحدها نتيجتها التي لم تكن سوى خاسرة.. وقد نسيت أو تناست في قوة الحياة أن الأخ يتكهن بمستقبل لا يقبله المنطق من أي اتجاه.. فهل هو متأكد أنه سوف ينجب؟!.. وهل هو يمكن أن يتوقع التوقيت لنهايته؟! يمكن ألا ينجب إطلاقاً.. ويمكن أن تسبقه زوجته لرحلة النهاية.. ويمكن.. ولكن لأن نفيسة توافق أخيها فهي لم تكن إلا من زاوية واقعها الذي فرض عليها تلك الموافقة وهذا ما تنافى مع منطق الأم والأخ حسين لأن واقعها واضح لا يشوبه ماض من أي نوع.. ثم تعكس نفيسة حقيقتها المؤكدة من الرد التالي وهي تفرز واثقة بأن بهية إن تركها حسنين اليوم فسوف تحقق ما فقدته معه في اليوم التالي أو الذي يليه.. أي أنها حتماً سوف تتزوج وهذا منطقي.. فهي فتاة صغيرة لم تصل إلى سن اليأس.. وهي تتحلى بقسط من جمال.. وهذا كله غير وارد في شخصية المتحدثة نفيسة.. والتي ينتفي معها هذا المنطق لعدم أهليتها له.. وكأنها تقرر لغيرها ما يستحيل تحقيقه معها والأسباب داخلها.. أو سبب واحد على الأقل داخلها.. والسبب الآخر فمكشوف أمام الجميع..

وكما ذكرنا أن شخصية نفيسة كانت مركبة.. أو مزدوجة ليس بمعنى ازدواج شخصية.. ولكنها تتحكم في شخصيتها أمام الآخرين.. فبرغم ما يصدر منها من أحكامها السابقة.. فهي مازالت تملك إرادة قوية في أن يصدر عنها تهكم يحول الموقف من المأساة إلى الهزل.. حينما يقرر حسين أن حكمها السابق في زواج بهية سوف يتحقق إن لم يكن اليوم فالغد جدير بتحقيقه.. وهذا حكم يصدق عامة.. أي على أي فتاة وهنا تجد نفيسة متنفساً ملهويا للرد على ذلك الأخ بمعارضتها الإقرار الذي جمع فيه الجنس رغم أنها أفردت حكمها من خلال بهية.. وهي تؤكد

له أن ذلك الحكم ليس من الصواب.. ولم يكن ردها إلا بدليل ملموس.. وهو "هي" نفسها ذلك الدليل وكأنها أرادت أن تلغي بنتيجة مسبقة وهي عدم زواجها حتى الآن والى الأبد إن شاء الله أن يتقبل هذا الحكم..

لم يكن تهكم نفيسة إلا إقراراً مزدوجاً في معناه.. يمكن أن يصل أحدهما إلى بقية أفراد الأسرة وهم يعلمون تماماً بالنسبة التي تتمتع بها الأخت من الحسن أو جمال الشكل وهي نسبة ضئيلة إلى حد ما.. فهم إذن يقدرون هذا الحكم من ذلك المنطلق.. أما هي فالأمر يختلف تماماً.. فبالإضافة إلى عامل الشكل فإن عاملاً آخراً قد فرض نفسه وهو العائق الأساسي في عدم تحقيق زواج إن عاجلاً أو آجلاً ولم يكن سوى فقدها لمتاعها وهذا وحده كافياً لسد كل طريق أمامها مهما كانت الظروف.

لقد وصلت نفيسة إلى مرحلة من التقدم في طريق الهاوية وانعكس عليها شعور بالإحباط من كل شيء.. فما لم يتحقق لها كرهت أن يتحقق لغيرها وهي هنا تعكس ذلك الشعور على صاحبتها بهية التي كانت سعيدة بعدما كان الفشل مآل تلك الخطبة وعدم إتمامها كان عاملاً مهدئاً في داخلها.. لقد كرهت أن تسمع نبأ زواج فتاة تعرفها.. رغم أنها شهدت لها بإتمام ذلك الزواج إن لم يكن اليوم ففي الغد القريب. وربما صدق حدسها.. بعدما قام الأخ الأوسط بزيارة عطفة نصر الله وفريد أفندي والد بهية على وجه الخصوص ليعقد معه صفقة أخيط التي لم تتم..

ثم يكون لنفيسة مع أخيرها حوارات مشتركة والعائلة تكشف ما بداخلها وتعكس رؤيتها الواضحة لبنات جنسها ممثلة في بهية التي تركها أخيها الأصغر وخطبها أخوها الأوسط في نفس اليوم.. وهي قابعة بين جدران أربع ليس في انتظار من يخطب ودها.. بل في انتظار المجهول.. ورغم تحفظ حسنين في هذا الحوار ورضاء نفس الأم الذي لم تظهره صراحة واقتناع حسين بكل المقاييس.. إلا أن نفيسة في هذا الموقف يكون لها رأي مغاير تماماً عن كل الآراء وشعور مختلف عن شعور أفراد الأسرة.. وكأن ذلك لم يكن سوى صدى لمدى اليأس الذي سيطر عليها..

فرغم ما أصاب بهية وعائلتها من تلك النهاية المؤلمة ولقاء حسين يهم لتهدئة ذلك الموقف إلا أن نفيسة ترد عليه:

- ما كان ينبغي عليك أن تلقاه الليلة، وعلى أية حال فالخطأ الأول ينصب على من يقبل تلميذاً صغيراً كخطيب لابنته فضلاً عن أن يكون هو الساعي بحيلة إلى عقد الخطبة.. ولا أجد حسنين مستحقاً للوم فقد كان تلميذاً كما قلت لا يعرف ما يضره مما ينفعه.. فلما أن بلغ طور الرجولة تبين أن الفتاة لا تصلح زوجة لها فماذا عليه إذا تركها؟!(٢٢٦)

وتستمر نفيسة في هجومها من منطلق شعور دفين يؤرق حياتها.. فهي تنكر على أخيها حسين فعلته وإقدامه لمجرد التفكير في خطبتها فهي تقول في موقف رداً على أخيها "كلام لا يدخل المخ" ثم مرة أخرى حينما يقرر حسين أن بهية خير فتاة يمكن أن يختارها إذا كان للإنسان من بد أن يتزوج فترد بعصبية "ومن قال أنه لابد من الزواج؟!" ولا تكتفي نفيسة عند هذا الحد.. بل أنها تعلق على حوار حسنين محذراً أخيه من هذه الزيجة أن يصل به الأمر كما وصل إليه هو وأن يكتشف أنه غير راغب في الزواج بالمرة وتتكرر المأساة حيث تجد نفيسة رداً شافياً "ربنا يسمع منك".(٣٢٨)

لم تكن هذه الردود إلا انعكاسات لتراكمات يأس سيطر عليها حتى أنها تكره الخير لإحدى صديقاتها وتعمل جاهدة على أن لا يتم خطبتها من أخيها حسين بعدما غبطت من فك قيود أخيها حسنين منها..

وهذا واضح من حوارها مع أسرتها.. فهي تلقي اللوم كله على أسرة الفتاة التي قبلت أخيها وهو مازال تلميذاً كخطيب لابنتهم وقد نسيت أو تناست أنها قد باركت ذلك الخبر لأخيها وكم من المساعدات وصلتهم حينما كانوا يعانون القحط والحاجة.. ثم مسعاه لإتمام الخطبة وكأنه في موقف ضعف.. فهي هنا تنظر إلى العالم الخارجي بما تحسه هي وقد وصلت بالفعل إلى قمة الإحباط بعدما وصلت في معيشتها إلى قمة ما كانت تأمله أيضاً.. وهي إذا كانت قد طافت بخيالها سابقاً للارتباط بوزير أو ذي جاه عريض ثم يصل بها هذا الخيال إلى الواقع لكي ترضى

بصبي بقال معدم وغد لم تكن مميزاته إلا سلبية ورغم ذلك لم تنله.. فهي هنا تعكس هذا الحكم على بهية رغم الفارق الكبير بينهما.. فهي تقرر أن أخاها ليس عليه لوم إذا تركها بعد أن قضى معها زمناً بحلوه ومره مادام إحساسه قد رفضها.. إنها هنا تكرر نفس المأساة التي عاشتها مع سلمان رغم أن بهية في هذا الموقف لم تخسر شيئاً بالمرة بل كانت دائماً فوق كل شبهة.. ولكنه في النهاية الظلم الذي يسيطر عليها ويجعلها تعكسه على من بيدها أمره..

لم يكن هذا فقط ولكنها تتمادى في أسلوبها العدائي من أخيها الثاني الذي أراد أن يصحح خطأ ارتكبه أخوه وفي نفس اللحظة يحقق أمنية طالما عاشتها في الخيال ولكنه أخمد شرارتها حينما أحس أن أخيه يطلبها وهاهو يجدها فرصته.. ولكن نفيسة بنفس أسلوبها تهاجمه لتقصيه عن طريقها.. فهي تسد أمامه كل الطرق فتارة تنكر عليه فكرة الزواج من الأساس.. ومرة أخرى تتمنى له أن يصل بفكره إلى رفض المبدأ.

وهكذا تقف نفيسة من تلك الفتاة بهية موقفاً سلبياً.. لقد كان الحقد والغيرة تسيطران عليها فلم تشأ أن ترى بهية أو غيرها تحظى بما لم تصل إليه في حياتها..

وبالرغم من كل ذلك فقد كان لها إحساس قوي تتحكم فيه كلما أرادت فهي تحول الموقف الجاد إلى هزلي مع أخيها حسنين حينما أخفق في إنهاء خطبته من ابنة البيك وكأنها تروح عنه وفي نفس الوقت ترى فشلاً آخراً يتحقق وكان ذلك يروق لها..

لقد عاشت نفيسة في ذلك المسكن الجديد بعد أن هجرت عطفة نصر الله بمن فيها.. لقد قضت زمناً ليس بقصير في هذا الجو بعد تحولها إلى طريق البغي.. وعرفت خلال هذا الزمن عشاق اللذة من كل صنف وجنس وتعرفت على أماكن الخفاء التي تمارس فيها نشاطها.. ولكنها بعد أن انتقلت إلى مصر الجديدة كان لابد لها أن تبحث عن ضالتها في هذا المكان الراقي.. وكأن القدر قد هيأ للأسرة ما كتب لهم أو عليهم.. فبانتقال العائلة إلى ذلك المسكن كان التغيير الذي

طرأ على كل شيء.. حسنين يرى أن بهية لم تعد مناسبة له.. فيتركها.. ثم يتقدم الأخ الأوسط لتحقيق أمل كان يتمناه في الماضي ثم يحققه ويتم له خطبة بهية موافقة صريحة ثم فشل حسنين في الوصول إلى مطمع تخيله حينما يرفض من قبل أحمد يسري يضاف إلى ذلك النهاية المحتومة التي وصل إليها الأخ الأكبر حسن حينما لجأ إلى ذلك المسكن الجديد وهو ينزف دماً بعد أن فقد عشيقته وثروته التي جمعها من حرام.. هذه كلها أحداث تفجرت فجأة منذ أو وصلوا إلى ذلك المسكن..

وكل ما حدث يعد نقطة واحدة.. أمام ما توصلت إليه نفيسة في التجربة الأولى لها على طريق الخطأ والخطيئة.. حينما تلجأ هذه المرة إلى منزل بحي السكاكيني.. مسكن مشبوه ويقبض عليها مع بعض نساء الليل الساقطات وقد أصبحت واحدة منهن لا تزيد شيئاً..

لقد وصلت نفيسة في هذا الموقف إلى نقطة نهاية.. لابد أن تنفرج الأزمة بأي شكل حتى تهوي.. وإما أن تكون بداية أخرى.. أو تتحول إلى نهاية نهائية..

ويتحمل الأخ الأصغر هول الصدمة الأولى بعدما عاش أهوال تغيرات أرادها ولم يتحقق منها شيء.. فقد خطيبته ليحظى بها أخوه.. فقد أمله في ابنة البيك.. فقد مكانته وسط زملائه.. فقد مهابته بنهاية أخيه حسن وها هو يفقد أغلى ما يملك.. يفقد الشرف.. بينما نجده ضابط الشرطة وهو يراه يرتدي نفس الزي العسكري.. وقد استدعاه من قبل شرطي.. يستقبل النبأ الذي يقع فوق رأسه كالصاعقة..

- يؤسفني أن أخبرك بأنها ضبطت في بيت بالسكاكيني..

وفزع حسنين واقفاً.. متصلب الجسم "مصفر الوجه محملقاً في وجه محدثه".(٣٥٧)

هذه كانت السقطة الكبرى ونهاية إرادة شيطانية أودت بها إلى ذلك المصير القاتم.. فهي تواجه أخاها لأول مرة دون أن تبدي أية دعابات.. متلبسة بالجريمة الشنعاء التي تسلب العائلة كرامتها.. هي السبب.. والأخ لا يستطيع أن يحرك

ساكناً.. أو أن يلفظ بحرف واحد.. ماذا سيقول ـ في هذا الموقف والضابط ينتظر حكمه ـ في إنهاء تلك الإجراءات التي لم تتخذ شكل القانونية ولكن عليه هو أن يتمثل دور المحقق والنائب والقاضي في آن واحد.. والمتهمة ليست بريئة.. ولا تحمل كلمة واحدة يمكن أن تكون بمثابة دفاعاً.. إذن فالصمت كان منطقها الوحيد إلى أن تجد الشجاعة لأن تتكلم ولن تدافع عن نفسها أيضاً.. ولكن لكي تكسر حدة الصمت الذي خيم على المكان.. والذي يكاد يفتك بأخيها الذي لا وزر ارتكبه لكي يقف هذا الموقف الشائن هكذا لاحت تباشير النهاية التي كانت بدايتها في بيت سلمان الذي تزوج ويمكن أن يكون قد أنجب ويعيش في سعادة أسرية بينما استسلمت هي لقدرها ولم تستسلم لنداء الرغبة الذي أدى بها إلى هذه النهاية..

ولم يكن الصمت ضعفاً.. بل تمثل عملاقاً شارعاً في القتل.. دون أن يتكلم أو أن يسمع كلمة.. ترى نفيسة هذا المشهد.. إنها سوف تنتهي في لحظة وسوف تكون ضحية مجني عليها في هذه الحالة بينما الأخ يتحول إلى متهم الأمر الذي لا ترضاه نتيجة فعلتها القذرة..

- قف.. لا تفعل.. لست أخاف على نفسي ولكني أخاف عليك أنت، لا أريد أن يمسك سوء بسببي. (٣٦٣)

لم ترد نفيسة أن يكون الأخ هو القاتل ويتحمل ذنب لعاهرة أفسدت على عائلتها لذة حياة جديدة بعد شقاء استحكم طوال سنين.. وأبت إلا أن يكون الموت بيدها هي وأن تتحمل وحدها الذنب بعيداً عنه..

وفي نفس الوقت ترد على سؤاله لها عن مقدرتها تنفيذ ذلك "فقد كان الأخ يريد أن ينهي حياتها حتى يتخلص من عار يفقد معه مستقبله.. وترد نفيسة:

- إن ما ورائي في الحياة أفظع من الموت.. (٣٦٤)

وهذه إجابة وضعت فيها نفيسة نهاية حقيقية لبدايتها الثانية والتي وصلت إلى ذروة كان لابد معها أن تحدث انفراجاً سواء لبداية أخرى أو لنهاية تلك النهاية.. إنها أصبحت تفضل الموت على الحياة بعد أن انكشف أمرها بهذه الطريقة وأمام أخيها.. فإن الموت بالنسبة لها ليس راحة أبدية.. ولكنه حل لتلك

المشكلة التي لن تقوى على المواجهة إذا لم تمت.. فالحياة لن تكون أكثر من موت بطيء تحس به في كل وقت هذا إذا قدر لها أن تعيش ولكن الحكم قد صدر بالفعل بالإعدام بيد الأخ وهي هنا تريد أن تبعد عنه التهمة.. وأن يكون الموت بيدها انتحارا في النيل.. تتخذ هي القرار الذي يرضي الأخ ويعمل جاهداً على تنفيذه.. ولم يكن منها إلا الإقدام بشجاعة يأس وإحباط لكي تصل إلى النهاية التي لم يكن بعدها بداية أخرى.. وتكون آخر كلماتها في هذه الحياة طلب الصفح من الأخ حينما تهمس له.. لا تذكر إساءتي.. وهي لا تعلم أنه سوف يلحق بها..

وهكذا تصل النهاية إلى ذروتها وتكون حياة نفيسة ثمناً رخيصاً لها.. ويتحقق بذلك فلسفة الكاتب الذي بنى تلك البدايات الأولى لهذه الشخصية وجعل الفقر والحاجة والنظم الاجتماعية التي لم تكن تحمل داخلها عدالة.. كل هذه الأمور السلبية تخلق السقوط لإنسانة لا ذنب لها إلا أن وجدت نفسها مسئولة عن مسيرة حياة لأسرة مات عائلها دون أن يصل بهم إلى نهاية قوية.. وتجد نفسها مساقة في طريق كان عليها أن تسلكه راغبة أو رغما عنها.

(٣) اللص والكلاب

واستمرار لخط الفقر والحاجة ونتيجة لنظم اجتماعية كان الظلم هو المحرك الأساسي لبنائه تتجسد شخصية نسائية في هذه الرواية اتخذت طريق البغي مصدراً لاستمرارية الحياة وهي "نور" تلك الشخصية التي تربطها صلة وثيقة بالشخصيتين السابقتين "حميدة ونفيسة" وهذه الصلة لم تكن سوى الفقر والحاجة اللتين جعلتها تمتهن حرفة المومس عن قناعة مادامت تدر عليها قوت يومها بما فيه الشراب الذي كان بمثابة مخدر يفصلها عن عالم الواقع والحقيقة ويهيئ لها حياة الزيف التي تتعامل مع أهلها.

وهذه الشخصية قد شكلت دوراً بارزاً في الرواية.. بل كانت حصن أمان لبطلها وبدونها لم يكن لسعيد مهران أن يستمر حتى النهاية.. فقد تلقته فور خروجه من السجن بعدما ضاقت به الأرض بما رحبت وتتكر له أهله وأحبائه في زوجته التي اتخذت من إنسان آخر زوجاً لها رغم أنها أم لطفلته..

لم يجد سعيد مهران سوى نور التي كانت تربطه بها علاقة حب أو عشق في الماضي من طرف واحد. ولم يكن ذلك إلا دليل أصالة نابعة من داخل تلك البغي والتي لم يجدها في بقية المحيطين به من القوم الشرفاء بدءاً من الكاتب الصحفي رؤوف علوان الذي كان يربطه به صداقة مشوبة بعطف وانتهاء بزوجته وأصدقائه.

إذن فهذه المرأة الذي كان الانحراف مصدر رزق لها لم تتكر لذلك الرجل الذي أحبته يوماً ولم يبادلها نفس العاطفة ورغم ذلك تستقبله في بيتها وتؤويه في أحلك الظروف التي يتعرض لها لرجال الشرطة.

لم تكن نور تخشى شيئاً.. فهي قد اتخذت طريقها في مكان يعرف عنها

الحقيقة.. والشباب هم مورد رزقها كل على شاكلته.. كان جمالها مشهود له ولو أنه بدأ في الذبول المتولد من المساحيق الكثيفة والتي كانت لزوم الحرفة..

كان الفقر والحاجة هي الدافع الأول لذلك السلوك وقد اعتادته حتى أصبح أمراً عادياً وأقل.. لم تكن تفكر في غدها مطلقاً.. فهي تعيش يومها وتحصل على مقابل ما تعطي لتفقده بما تحتاج إليه سواء المأكل أو الشراب أما الحب أو العشق فهما ليسا واردين في قاموس تعاملها.. فهي تعطي كلمات مشوبة بالغرام لطلاب الهوى تمهيداً لقضاء حاجاتهم منها ولن تخسر شيئاً.. فقد خسرت هذا الشيء مرة واحدة واستمرت تعطي من جسدها الذي لم يكن يصل إلى درجة النقصان الجسدي إذا ما استثنينا الناحية الصحية والتي لم تكن تخطر لها على بال مطلقاً..

وكعادتها يراها سعيد مهران بصحبة شاب وسيم يبدو عليه الثراء بسيارته.. ولم يكن ذلك بغريب في شيء فهي هكذا والكل يعلم ذلك ويروا كل شيء وكأنه أمر عادي.. حتى أن سعيد مهران حينما يسأل عنها ويرى مرافقها يجيب على سؤاله بنفسه "صيدة" نعم فهذا كان حالها وكانت ترافقه بتغير كل ليلة.. فهم زبائن آخر الليل طلاب اللذة في الظلام والخلاء بعيداً عن أعين الرقباء..

تلتقي نور مع سعيد مهران في وجود صاحب المقهى "طرزان" والذي كان يعرف عنها كل شيء.. لقد كانت ومازالت تحبه حباً صادقاً متنزهاً من أية غاية كبقية زبائنها الذين لم يكن لهم غاية سوى قضاء المتعة ودفع المقابل.. أي لم تكن بالنسبة لهم سوى سلعة تبتاع وهم بالنسبة لها مصدر معيشة اعتادتها دون أدنى تفكير في المستقبل وترد على سؤاله الذي كان بمثابة اطمئنان عليها:

- بخير، وأنت؟ صحتك عال، لكن عينيك؟! أنا أعرفك وأنت غضبان؟! (٥٠)

لم تكن نور وسط ذلك الزحام البشري المتغير والذي يحمل كل منهم لوناً يختلف عن الآخر في كل شيء.. لم تكن تفقد إحساساً ولماحية سريعة حينما التقت بسعيد ومن منطلق حب قديم ولكنه مازال حياً يكون جوابها على سؤال من كلمتين فقط.. ترد على ذلك السؤال بكلمة واحدة.. وهذا ما يخصها، فكان يكفيها أن يبدر ذلك التساؤل منه دليل على اهتمام ولو هامشي ولكنه يروي ظمأ زمنٍ طويلٍ افتقدته وربما نسيته لطول ذلك الغياب.. ولكن داخلها لم يكن تخلص من حبه..

وعلى ذلك فهي تجيبه بكلمة "بخير" وكفاها ذلك عن نفسها.. إلا أنها لا تكتفي عند هذا الحد عن السؤال رغم أنها قد أجابت عليه.. فهي ترى أن ذلك السؤال من سعيد مهران قد فتح باب الحوار للتحول بدورها إلى سائلة حتى لا تنهي باب المناقشة التي كانت ترى من خلالها نشوة تتمنى لها دواماً أطول.. ولذلك فهي ترد له تحيته أو سؤاله بمثله أو لا.. تريد أن يطمئن قلبها عليه بعد هذا الغياب الطويل وهي أعلم به.. ولأنها تحبه فهي لا تنتظر منه إجابة كما فعلت هي.. بل تجيب بنفسها على سؤالها هذه الإجابة لم تكن عفوية.. بل كانت استنتاجاً من تأمل عميق لهيئته بأكمله.. فهي تقرر أن صحته جيدة.. رغم أنه هذا القرار كان من المنطقي أن يصدر عنه لأنه انعكاس لإحساس شخصي.. ومع ذلك فإن ذلك الانعكاس تصل هي إليه وتسبقه بالإجابة نيابة عنه وكأنه يعيش داخلها.. وكان ذلك إلى حد ما صحيحاً.. فهي تحبه والماضي البعيد الذي شهد ذلك ولو من طرف واحد طرفها هي ولم تجد صدى لهذا الحب.. إلا أنها آثرت الحب على فقده رغم علمها بتعلقه بأخرى إلى درجة الزواج منها.. ورغم ذلك فلم تفقد هذا الحب بل عاش معها لعشر سنين.. ومع أول لقاء تشتعل شرارته ويبلغ درجة الإحساس بأن ترد على سؤالها بما تراه وتحسه ولم يكن سوى الحقيقة.

لقد سأل مهران سؤالاً وانتظر الإجابة ووصلته وزادت عليه بسؤال مثله ولم تنتظر هي الإجابة حيث إنها بنظرتها إليه كانت قد توصلت إليها.. سألت وأجابت عن سؤالها بعد أن أجابت عن سؤاله هو ولم ترد أن تترك الفرصة الأولى بعد طول غياب تنتهي بلقاء مفاجئ له قيمة كبيرة بالنسبة لها.. يمكن أن يكون ذلك اللقاء بمثابة مجاملة من سعيد إلى نور بغية شيء ما.. ولكن بالنسبة لها كان حياتها ولذلك فهي تستمر في حوارها.. وهذا الاستمرار لم يكن إلا نتيجة لتفرسها من هيئته جيداً.. لقد قامت في لحظات قليلة بالتعرف عليه من قرب والتوصل إلى داخله جيداً كما سبق أن توصلت إلى خارجه بمهارة فائقة.. تلقى بالتقرير الثاني.. بعدما أقرت بكمال صحته.. وهو حكم كلي.. ثم تنتقل من الكلي إلى الجزئي.. وهي عينيه.. بعدما قرأت ما بداخلها من نظرات ربما تكون شرسة.. فهي تسأل عن عينيه التي تعكس غضباً ظاهراً سبق أن عرفته في بعض حالات مشابهة.. وهي هنا تلجأ إلى القياس لتصل إلى نتيجة أقرب إلى الحقيقة..

هكذا كان لقاء نور وسعيد مهران الأول بعد غياب طويل ولكن الزمن لم يؤثر في الحب الذي لم يمت بفراقه عنها مرة حين زواجه وأخرى بعد سجنه.. فهي مازالت على عهدها به رغم أنه لم يكن يبادلها نفس الشعور.. فهي نور تلك الفتاة أو المرأة التي تركت نفسها لكل عابر سبيل يملك مقابلاً أن يأخذ ما يريد.. ربما تعاملت مع مئات أو أكثر أو أقل.. فإن العدد كما تقر أو يقر طرزان كان كل ليلة مع صيدة شكل كل هؤلاء الذئاب لم يصلوا إلى داخلها.. هم يقضون وقتاً طيباً بلغتهم كل طبق لما يملك.. ولكن ذلك لم يكن سوى أخذاً ظاهرياً لا يؤثر على ما بداخلها من شعور وإحساس.. والدليل أنها تعيش لحظاتها مع سعيد وتصل إلى داخله من منطلق خبرة مر عليها سنوات طويلة التقت خلالها بأعداد هائلة من البشر كل على شاكلته المتفردة وكأنها لم تفارقه سوى يوماً أو بعض يوم..

هذه الشخصية كانت من القوة لدرجة أنها تحتفظ بشيء رغم التفاف آلاف الراغبين حولها.. تعطي في حدود وبلا حدود من مساحة محدودة لم تضعف أمام أحد هؤلاء وأسرفت معه حتى كان بديلاً من سعيد رغم قربهم جميعاً منها.. وإغداقهم المال الذي كانت دائماً في احتياج إليه وإلا لما واصلت ذلك الطريق.. ومع ذلك لم ينل منها أيهم ما تكنه لشخص واحد ظل بعيداً عنها منذ البداية لأنه لم يبادلها نفس شعورها وفي نفس الوقت لم يتجنبها أو يصدها وربما يكون ذلك هو الدافع لتمسكها وتعلقها به بأمل أن تأتي الرياح بما تشتهي السفن يوماً ما..

لقد كان ذلك اللقاء والذي لم يكن في حسبانها كسباً معنوياً أحيا بداخلها ذلك الشعور وانعكس على ماض بعيد لكي يقرب المسافات لتكون لحظة أو أقل..

وبذلك فهي تعطي الفرصة لسعيد أن يقول ما عنده.. أو أن يجعل الحوار مستمراً.. ويكون ذلك الشاب الذي كان يرافقها هو محور الحديث.. الأمر الذي لم يرق لها.. حيث كانت ترغب أن تكون هي ذلك المحور وقد أعلنت عن قبولها أمره بأن تقضي على ذلك الشاب إذا رغب هو ذلك..

فهي تحب.. ثم إنها في نفس الوقت تتعرف على الرجال للحصول على المال دون النظر لما تدفع.. ورغم ذلك فهي مستعدة بأن تضحي بهذا الزبون نظير إرضاء سعيد.. الذي لا يستطيع ذلك الرأي بل يذهب بفكره إلى زاوية أخرى لتعترف نور بأنه لا يفكر فيها.. بل في ما يمكنه أن يحصل عليه من ذلك الشاب.. ورغم إقرار

سعيد بذلك إلا أنه لا يقطع خط الرجعة أمام تلك المرأة التي رأى فيها حلولاً كثيرة لمشاكله المستقبلية وعلى ذلك فهو يرضي غرورها بالوعد عن لقاءات كثيرة وربما ذلك فيه الكفاية مؤقتاً.. فقد كانت كلماته بمثابة أمل يكفيها لتنتظر غدها الذي يمكن أن يحقق لها وعده..

لقد عاشت نور حياتها راضية مرضية رغم ما فيها من أخطار ومخاطرات لكي تحصل على الثمن الذي يؤويها ويدفع عنها ذل الحاجة وسيطرة الفقر الذي تمثل أمامها كوحش خطره جاثم على مستقبلها المهزوز ورغم ذلك فلم يكن الطريق الذي سلكته وارتضته أقل خطورة ووحشية لكنه يضمن لها المال الذي لم يكن الفقر بمحققه.. وقد جعلت الجسد منها مشاعاً لكل ذي طالب ولكن القلب اختصر تعامله على إنسان واحد هو سعيد مهران رغم عدم تجاوبه ولكنها ارتضت أن تهب الحب دون انتظار عطاء مقابل على أمل أن يتحقق ذلك إن عاجلاً أو آجلاً.. وهو ذا يعد بزيارات متعددة وقد أصبح وحيداً الأمر الذي يمكن أن يصل بها إلى مرادها..

توافق نور دون أدنى اعتراض رغم تحفظها من نتيجة ذلك.. فهي تخشى على حياتها التي ارتبطت بسعيد.. وفي نفس الوقت تخشى على سعيد سوء العاقبة بعد أن أصبح قريباً منها.. فهل تكون هي السبب في بعاده مرة أخرى إلى سجن بعد غيبة أربع سنوات.. وقد عاد إذن فهي في تحفظها تخشى عليه أولاً ثم على نفسها أو حبها نحوه من أن يفقد إلى الأبد..

لقد كانت نور تحمل في داخلها قلباً صادقاً وفياً وتضحية نادرة لم تتوفر في نبوية التي من أجلها تركها سعيد وبدورها تركت زوجها لتتزوج من آخر.. كانت نور رغم حبها الذي لم تلقَ مقابلاً له وفيه وفاء عاش داخلها وها هي تستقبل من أحبته ليحيي فيها العاطفة التي كانت موجودة ولم تمت.

وافترقا على أمل لقاء يحقق فيه سعيد مخططه الذي أراده.. ورضيت نور بتلك النتيجة التي رغم ما فيها من خطورة إلا أنها ترضى ذلك الرجل حيث لم تكن تنتظر أكثر من ذلك.. رضاءه كان كافياً ليعيد إليها أملاً لم تفقده بل كان قابعاً رهن إشارة من يوقظه.. وها هي كلمات سعيد تهبه التحرك..

لقد كان الحب.. الحب وحده هو محرك نور إلى نهاية لم تفكر في عاقبتها ولكنها كانت منساقة إليها برغبة ونشوة.. فهي الطريق الأوحد لضمان تكرار ذلك اللقاء الذي لم يكن سوى لقاءً عابراً أو صدفة بحتة ساقها لها القدر لكي يعوضها عن بعض ما أعطت.. ويكون الوفاء أيضاً بما أمر به سعيد.. حيث تنفذ نور ما أشار به حرفياً.. وتهيء له الفرصة التي أرادها دون نقصان.. وتلاقي نتيجة لذلك إهانات داخل قسم الشرطة وتعترف بما أراده لكي تبعد الشبهة عنه وعنها في نفس الوقت وتنجلي الغمة وتعود مرة أخرى لكي تمارس نشاطها المعتاد ومازالت تعيش على أمل لقاء رأت أنه بعيد المنال.. فقد عرفته جافاً لا قلب له ورغم ذلك فهي تجعل من كلماته خيط أمل ولو كان واهياً فإنه حقيقة سمعتها منه ولم ينقلها أحد إليها..

وإذا كان مرور يومٍ أو أكثر دون تحقيق هذا اللقاء.. فقد ارتضت نور منه لقاءين عابرين.. ولم تنتظِره في بيتها.. فلعله لا يحقق ما وعد به.. وكان يمكن أن يكون ذلك حقيقة لو أتيحت له فرصة مغايرة للواقع الذي خلقه بنفسه..

ولكن الصدفة التي جمعتها به في المرة الأولى تتكرر بعد قضاء الليل.. تعود نور بعد قضاء ذلك الليل مع أحد راغبي المتعة محملة بالمقابل الذي تقاضته ثمناً لبعض من جسدها.:. كعادتها المتكررة حيث إن الليل كان مناسباً لحرفتها المحرمة.. مثقفة القدمين من عناء عمل مضن أفقدها قوتها.. فهي تصعد السلم بخطوات ملؤها التعب.. ومع ذلك حينما يأتيها صوته من أعلى لا تشعر إلا وساقيها تسابقان الريح في الصعود وكأن الصوت قد بعث فيها حياة فقدتها مع آخر رفيق..

وإذا كان لقاء نور وسعيد في هذه الساعة التي أوشك نور الصباح أن يخترق ظلمات الليل.. والحالة الجسدية التي كانت تسيطر عليها من عناء تعب ليلة بأكملها.. ثم الحالة النفسية التي كانت تخرج بها عقب كل لقاء.. فإن كل هذه الأسباب مجتمعة قد تلاشت تماماً في وجود ذلك الرجل.. وتغير معه الحال إلى النقيض في كل شيء.. ولم يكن المحرك لذلك التغير سوى الحب الصادق الذي أكنته نور في داخلها والذي أحيا فيها ذلك النشاط والحيوية لكي تستقبل سعيد مهران بهذه الحرارة وتعيد به ومعه قضاء وقت لم تكن تقوى على تحقيقه مع غيره..

ثم تعترف له بصراحة:

- الحق أنه لم يكن عندي أمل أنك ستجيء. (٧٣)

لم تنتظر نور ذلك الرجل الذي قطع أمامها وعداً بزيارتها المتكررة ربما لسابق معرفتها به.. فهي قد عرفته وأحبته وكم تمنت أن تكون له وحده تحت أي مسمى يرتضيه.. ولم تفلح مع محاولات كثيرة وكان الفشل في النهاية هو النتيجة التي تخرج بها.. وعلى ذلك وبعد مرور سنوات لم تلتقِ به وهي تعرف أنه سجين.. وأنه متزوج.. وأنه أب.. تعرف كل ذلك.. ومع كل هذا فهي لم تقنط وعاشت وحبه يملؤها في الداخل دون أن يؤثر عليه أحد رواد الهوى وحفظت ذلك الحب.

وعلى ذلك فهي لم تبن أملاً كبيراً في لقائه مرة أخرى على الأقل في القريب.. ربما يلتقيان بعد زمن طويل بطريق المصادفة أيضاً ولكن ليس الآن.. فهي لو تعلم أن اللقاء سيكون بعد أيام لما تركت مسكنها انتظارا له وحتى تكون في شرف استقباله.. ولكنها كانت تعد ذلك اللقاء بعيد المنال.. ولذلك فهي تواصل مشوارها الليلي كعادتها حيث تكون العودة بعد انقضاء الطرف الآخر من حصوله على مراده.. وغالبا ما يكون التوقيت بعد انتصاف الليل ويمكن أن يشمله بأكمله وربما تجاوزه ليشرك معه النهار أو جزء منه وذلك يخضع لظروف الرجل أما هي فرهن الإشارة طالما سيكون المقابل مجزياً..

ولكنه أوفى بوعده وجاء.. وانتظر.. وتحمل ظلام الوحدة.. كل هذا وهي بمصاحبة رجل آخر نال منها ما أراد وتركها منهوكة القوى.. لم تكن تأمل أن يكون اللقاء الأول مواجهة وهي في مثل هذه الحال.. ولكنه لم يحدد التوقيت.. ولكنها في النهاية تجده وجهاً لوجه وتعترف أمامه أن الأمل لم يكن يراودها في مجيئه بهذه السرعة أو على الإطلاق.. وهذا من تجارب عديدة كان الماضي شاهداً عليها.. فهي نعم تحبه بصدق ولكنها لا ترى صدى لهذا الحب من قبله.. وإلى هذه اللحظة لم تكن تعلم عن حياته العائلية الحقيقية.. فهي تعلم أنه زوج.. وأب.. وهذا يكفي لأن يهب حياته لهما.. وأما هي فكانت تحيا من خلال تخيلات أو أوهام.. أو أحلام.. وهي في النهاية كلها تؤدي إلى لا شيء فقط هي تحبه وهذه هي الحقيقة المؤكدة التي لا ترتاب في صحتها..

وهو قد وعدها.. ولكنها تعلم عنه الشيء الكثير.. هو يتابع باهتمام كل ما يعود عليه بالنفع المادي دون النظر للوسيلة.. وهو أيضاً خطط لمصلحة ما لا تدري

ما هي ولكنها في النهاية كسب له من ذلك الشباب الذي تصطحبه مع سيارته.. فهو يحتاج إليها لفترة زمنية محددة تساوي تنفيذ الخطة المجهولة لها.. ولذلك فهو يبدو أمامها لين المعاشرة على عكس ما عهدته وأن ذلك الوعد الذي قطعه على نفسه لزيارتها لم يكن إلا لتحقيق مصلحته الراهنة.. وقد حققتها له على أحسن ما يكون.. إذن فهو قد نال ما أراد.. أما الوعد فقد أيقنت.. أو على الأقل ظنت أنه حل نفسه منه مادام قد توصل لما يريد.. وعلى ذلك فهي تعترف له بعدما تأكدت من حقيقة وجوده أنها لم تكن تنتظر منه الوفاء السريع بذلك اللقاء..

هذا الاعتراف كان دليلاً على صدق داخلي جعلها تنطق بما كانت تحسه وتتوقعه.. أما وقد تمثل أمامها في هذه اللحظة بعد طول انتظار فهذا ما تعده أمراً بالغ الأهمية بالنسبة لها.. إنها كانت لا تطمع في أكثر من تجاوب حواري يحدث معها توازناً عاطفياً.. أما الآن فهو بلحمه وشحمه ماثلاً أمامها وفي حاجة إليها وإلا لما جاء في هذه الآونة من الليل.. ولكن ذلك لا قيمة له.. فهذه فرصتها لكي تقترب منه كما تريد وكأنما ملكت الدنيا بما تحوي..

على أن الفتاة نور في هذا الموقف كانت تعد نفسها في مفترق طرق وعليها أن تختار وتحافظ على هذا الاختيار.. فهو معها وهذه حقيقة لم تكن تحلم بها يوماً ما.. ربما تمنتها ولكن لم تكن تصل بفكرها أن يجمعهما مسكن واحد في هذه الآونة وهي تعلم عنه أنه متزوج ولكن ربما جاءها لشيء آخر.. يختبئ عندها.. يطلب منها تنفيذ مخطط أو أي شيء من هذا القبيل.. إذن فإن وجوده على ذلك النحو لن يتعدى زمناً طويلاً.. ولكنه موجود وهذا هو المهم.. وتقدم له الاعتذارات الممزوجة بالرجاء عسى أن يقبلها منها.. فانتظاره إياها لم يكن بالأمر السهل.. كان يشكل في تفكيرها أمراً خطيراً ولذلك فهي تأسف له عن ذلك.. علماً بأنها لم تكن تعلم عن مجيئه في هذا الوقت.. وهو أيضاً يعلم أنه ما جاء إلا فجأة.. ولذلك فهو يرضي غرورها بقوله:

- سأنزل ضيفاً عندك لأجل طويل.

فارتفع رأسها ابتهاجاً وهي تقول:

- امكث طول العمر إن شئت.. (٧٤)

إن سعيد مهران كان يعرف عن نفسه الكثير.. ومن هذه المعرفة تأكده من شعور نور نحوه في حين أنه كان له هدفٌ آخر من مسألة العاطفة فتعلقه بأخرى جعله يتجاهل نور أو أن يعرض عنها بشيء من الجفاف المشوب بالرقة.. فهي بالنسبة له امرأة تكسب قوت يومها أو غدها من هذا الطريق الذي لم يكن أمامها غيره ولم يكن إلا الفقر دافعاً لسلوكه وهو إذن يشاركها نفس المنطق.. فهو يكسب ثروات تكفيه سنين عن طريق اختياره لسهولته في الكسب ولأنه شب عليه منذ الصغر حيث لم يكن أهل للمساءة وأن الفقر أيضاً كان دافعاً له لاختياره هذا المسلك.. إذن فهما متشابهين في أكثر من نقطة ومختلفين في مسألة العاطفة.. فهي تميل إليه وهو يميل إلى غيرها ولا سلطان على الحب لحل هذه المشكلة..

ولكن الأمر هنا قد اختلف تماماً واختل ميزان العاطفة التي لم تكن صادقة على الأقل من طريق واحد هي نبوية التي ضحى سعيد مهران بكل شيء في سبيل حبها ولم تحفظ له هذه التضحية.. هذا جانب ثم عدم معرفة نور بطلاق نبوية وحرية سعيد.. وهذا هو الجانب الثاني.. ونتيجة لذلك تتجه نور بالاعتذار إليه حتى يمكنها الاحتفاظ به فترة زمنية طويلة بحسابها إن كانت ساعة فلا بأس أن تمتد لساعتين أو أكثر وهذا ما كانت في داخلها تتمناه.. وهو يعلم ذلك يعلم أن دقائق معدودة يختلي بها كانت كافية لكي تجعلها قريرة النفس.. وعلى ذلك فهو يلقي إليها بطلبه الذي يبدو في ظاهره ثقيلاً ولكن جوهره كان أمنية عزيزة المنال بحساب المنطق والماضي معاً فهو يخبرها باستضافة نفسه أمداً طويلاً..!!

لقد كانت نور فتاة ظلام متمرسة امتهنت حرفة البغي رغماً عنها فلن توجد فتاة ترضى لنفسها هذه النهاية إلا تحت قهر مميت ولم يكن أكبر من الفقر قهراً.. أو الحاجة.. ولكن قدرها ساقها إلى هذه الهاوية.. ورغم أنها تعاملت مع كثيرين من البشر على اختلاف ثقافاتهم وأشكالهم.. تعاملت عن قرب امتزج فيه الجسد.. ورغم ذلك لم تخرج من أية لقاء بعاطفة حب صادقة.. ثم تصدق العاطفة مع سعيد مهران رغم اعتراضه عنها.. وها هي قد وجدته دون عناء فما أسعدها بلقائه.. وليس هذا فقط بل تعدى هذا اللقاء إلى أبعد من تلك الأمنية بمراحل..

إنها الإقامة الدائمة كما طلب بلسانه.. ولم يكن الرد من جانبها إلا انعكاساً لشعور صادق وتحقيقاً لأحلام طالما راودتها في الماضي دون أمل في تحقيقها.. ولكن الحلم قد أصبح واقعاً ملموساً تملكه بكل ما فيها من أحاسيس وتجيبه على طلبه الذي كان بمثابة مفاجأة بالنسبة إليها بسخاء مقرون بالمشيئة من جانبه..

إن نور بما ملكت من قلب لم يلوث رغم الليالي التي ملأت حياتها بزوار اللذة المحرمة.. كانت ومازالت لا تصدق ذلك العرض من سعيد مهران.. كان ذلك كثير جداً تأبى أن تصدقه برغم وقوعه وسماعه فهي تعرض عليه البقاء الأبدي وليس هذا رداً على طلبه فحسب بل تزيد من منطلق عدم تيقنها من حقيقة الموقف وجدية العرض بإضافة المشيئة الصادرة منه هو "إن شيءت" فهي هنا لم تستطع أن توافق على طلبه دفعة واحدة.. فهي تعطي لكي ذي حق حقه.. أما عن حقها فكان مجرد رؤيته أمامها كان كافياً وزيادة بمنطق الماضي.. ثم عن حقه فهو بالنسبة لها السيد المحبوب ولو أنه غير محب.. أما في هذا الموقف فيمكن أن تتغير أشياء كثيرة فمن حقه أن يطلق بل يأمر.. ومنها هي الإجابة بلا تردد..

هكذا كانت نور ابنة الليل والكأس التي زجت في طريقها دون إرادتها ولم يكن وراء ذلك كما تم ذكره.. سوى الحاجة.. والفقر ويدور الحوار بينهما.. لم تكن إجابات سعيد سوى كلمة أو بعض كلمة كأنه يريد أن ينهي التساؤلات.. فهو مازال عند موقفه العاطفي لم يكن قد اقترب منها كثيراً رغم تواجده في بيتها.. ولكنها هي من منطلق الحق كانت لا تريد للحوار أن ينتهي.. فهي قد انتهت من دقائق من مهمة شاقة أخذت منها جهدها وحيويتها.. ورغم ذلك عادت لها الحياة والقوة دفعة واحدة فور لقائه.. وهاهي تخلق حواراً غير متجانس حتى تكون الإجابات أطول مما تنتظر.. ثم إنها تصل الحاضر الذي تعيشه في ساعتها بالماضي الذي كان.. وكأنها تريد أن تسمع منه حديثاً مطولاً لا ينتهي.. وذلك بعد أن تعلم منه قصة الطلاق.. فهي تقول:

- سأعد لك مائدة.. عندي طعام وشراب.. أتذكر كم كنت جافاً معي في الماضي؟

- لم يكن عندي وقت للحب. (٧٦)

هكذا سريعاً بدأت تتآلف معه وتمنحه الأمان الذي لم يقصد هذا المكان إلا بحثاً عنه.. ولم تكن قد علمت شيئاً بعد.. فهي تهيئ له ما يريد دون التعرض لحساب من أي نوع.. إلا أنها تجد حساباً آخراً أرادت من خلاله أن تبعث الماضي الجاف من جديد وكأنها تتحداه لانتصارها في لحظتها الراهنة وهو في بيتها.. بل وفي حاجة إليها..

ولكنها قبل أن تخوض في بعث الماضي.. تهيئ للحظتها الحاضرة.. فهي تراه متعب الجسد غير مهذب الهيئة الأمر الذي لن يروق لها.. فهي تريد أن تراه على أحسن حال حتى تستمتع برؤاه على أحسن وجه.. تهيئ له حماماً لكي يغتسل.. ثم تعده بمائدة الطعام والشراب.. إنها تريد أن تصل إلى قلبه دون زيادة.. وعلى ذلك فهي تمهد لذلك الوصول تارة بالماديات وأخرى بالمعنويات.. وهاهي قد لبت له الشق الأول وكأنها أدركت المقولة التي تفيد "أقرب طريق إلى قلب الرجل معدته" وقد حققت له ذلك.. ثم تتجه إلى الشق الثاني المعنوي حيث تقيم عتاباً ملؤه الشفافية والحنان مشوباً بذلة المحب..

لقد هيأت له سبل الحاضر مكتملة.. ونزعت منه مرارة ماض قريب لكي يصفو لها.. ثم تكسر جدار الحاضر لتطل على الماضي بذكرياته الجافة نتيجة معاملته الجافة لها.. هذا لم يكن يزيد عن عتاب أرادت من خلاله أن تصل إلى نقطة تحول حقيقية تنتزعها من داخله.. أو على الأقل اختبار لموقفه منها حتى هذه اللحظة.. فهي تكشف له عن ماض بعيد كان لا يعيرها أي اهتمام برغم اهتمامها البارز.. وكأنها مجرد طيف خيال يمر سريعاً وليس له وجود حقيقي.. لم يبد أدنى اهتمام بها وهي التي لم يكن في حياتها غيره.. أو في قلبها إن صدقت..

هذا التساؤل منها والمغلف بعتاب المحب.. كان الهدف منه الوصول إلى نقطة حقيقية في الوقت الحاضر.. فما كان قد كان وانتهى.. وهي تعيش لحظتها حيث وجدته أخيراً أمامها.. ولكنها تريد أن تصل إلى قياس عاطفة الحب ولو بالكلمة حتى يمكن لها أن تبني تصورها على اعتراف منه.. إن سؤالها هذا كان لابد له من إجابة يمكن من مضمونها أن تصل إلى حقيقة..

وكما توقعت تماماً جاءتها الإجابة.. وبنفس أسلوبه التلغرافي الطبيعي.. ولكنها إجابة تستشف منها معان إيجابية رغم عدم إيضاحها فهو يرد عليها بأن إهمالها لم يكن سوى أن الوقت لم يسعفه لكي يفكر في الحب.. هذه الإجابة كانت كافية على سؤالها.. رغم أنها تحمل تساؤلاً آخر يجعل منها تهربا.. فهو يعترف أنه لم يكن لديه وقت للحب.. إذن فكيف أحب هذه الإنسانة التي لم تصن وده لمنتهى هذا الحب بالزواج والإنجاب والتعرض للخطر في سبيلها..؟! إذن فيمكن إذا فسرت كلماته من هذه الزاوية أن تكون إجابته تهرباً من سؤالها.. أو إنهاء لحوار لم يرقه.. ولكنها لم تصل إلى هذه النتيجة سواء بقصد أو عن غير قصد بل أرادت المعنى الآخر.. وهو أنه لم يكن عنده وقت للحب ولذلك كان معها جافاً.. إذن يمكن أن يكون الأمر على غير هذه الوجهة إذا توفر له بعض من ذلك الوقت.. وهذه نتيجة ارتضتها حتى تستكمل مسيرتها محققة ما لم تستطع تحقيقه وكأنها وجدت أن تلك اللحظة وما بعدها كفيلة بأن تصنع ما لم تستطع تحقيقه إبان عهدها الماضي.. والوقت أصبح متوفراً.. فهو كما أقر.. سوف يكون عندها ضيفاً لأجل غير مسمى..

لقد كانت نور وسط حياتها الذي سيطر عليها ضياع كامل استسلمت له وتعودته مازال قلبها بكراً مغلقاً أبى أن يفتح أبوابه إلا لمن ارتضى.. وكأن الخيانة هنا لم تلصق بهذه الإنسانة من هذه الزاوية الضيقة برغم أن هذه الخيانة كانت حياتها الخاصة والتي رصدتها لاكتساب قوتها وما دونه.. لقد أقرت نور ذلك الطريق على مرأى ومسمع ممن يحاورنها ولم تكن تخفي شيئاً.. فهي تمارس نشاطها بطريقة علنية.. في النور.. رغم أن الظلام كان أداة التنفيذ زمنياً.. بالإضافة إلى ذلك لم تقدم قلبها تحت اسم مستعار ولأحد.. بل قدمت نفسها من الخارج.. الجسد الظاهر.. أي العاطفة الدفينة فلم يقربها أحد.. حتى كان لقاء سعيد مهران الأخير الذي انفرج عنه مكنون القلب لتهديه إليه عن رضا كامل.. فكان الشرف بمعناه المطلب متولداً من تلك الإنسانة التي لا شرف لها أمام المجتمع والقانون استطاعت أن تحافظ على القلب نقياً لمن وهبته حبها.. فكان هذا التناقض دليل قوة إرادة لم يتوافر لنبوية التي ارتبط بها سعيد مهران لتأكده من حبها وكذلك من طهارتها الخارجية وإن أثبتت الأيام أن داخلها كان عكس مظهرها.. وربما كان هذا الموقف تكون نور هي الصورة المضادة تماماً لنبوية..

هكذا وجدت نور ضالتها.. وجمعهما مكان واحد مغلق.. لم ولن يشاركها ثالث هذه الحياة.. وقد أصبح سعيد سجين هذا المكان وهذا ما تتمناه.. وتخطو خطوة البداية دون أن تخشى أحد.. وتعيش معه بقية الليل إن كان له بقية.. ولابد لها أن تغفو حتى يمكنها معاودة البحث عن ضحايا جدد فهم مصدر الرزق ليس لها.. ولكن لضيفها الذي أصبحت مسئولة عنه في كل ما يطلب..

لقد كان الحب داخلها عدو لمارد اسمه الخوف.. فهي قد استطاعت أن تحتمل سنوات حب من طرف واحد.. وهاهي الفرصة قد التقطتها بسهولة ولكن تحت أسباب مازالت تجهلها.. ولكنها حتماً أسباب بعيدة كل البعد عن الأمان أو الأمن.. إذن فثمة خطر جاثم لابد له أن ينهض لكي يكون أداة تفرقة وهذا ما تخشاه.. وهذا أيضا ما هدد نومها الذي لم تهنأ به.. فهي تنهض تحت وطأة حلم.. حلم وليس حقيقة جعلها تنتفض رعباً رغم أن عيناها قد سلطت على صورته الحية.. وتعترف له وأمامه بما أفزعها:

- حلمت أنك بعيد.. وأنني أنتظرك كالمجنونة..

فقال في كآبة..

- هذا في الحلم.. أما في الحقيقة فأنت التي ستذهبين بعيداً وأنا الذي سأنتظر.(٧٧)

إن ذلك هو الحوار الذي يصدر عن نور لم يكن إلا تجسيداً لشعور داخلي جعلها تخشى زوال الموقف التي هي بصدده.. كان وجوده معها في مكان واحد حلماً رغم أنه حقيقة إلا أنها لا تكاد تصدق أنه واقع.. وذلك الشعور يسيطر على اللاشعور الذي يصور لها مشهداً تعيشه وكأنه انتزع منها ذلك الحبيب بعد أن جمعه بها القدر.. فهي تراه في منامها ولكنه يبعد عنها لدرجة أنها لا تستطيع الوصول إليه.. كل ما تمكنت أن تفعله هو الانتظار غير العادي.. إنه انتظار مقرون بالجنون.. فكيف تفقده بعد أن ملكته وهي على مقربة من قلبه أيضاً.. فلم يكن ذلك الحلم إلا انعكاسا لخوف من مجهول يمكن أن يسرق منها تلك السعادة التي

أصبحت بالنسبة لها تضع يدها على أول الخيط ثم يكون الاستمرارية لتصل إلى الغاية التي تحقق لها حلمها الكامن في القلب..

فرغم وجوده الحقيقي معها في بيتها إلا أنها تخشى منه البعاد والذي سوف يجعلها تعيش مرارة الانتظار.. فهي قد عاشت الماضي سنوات كثيرة تهبه الحب وحده ولم تيأس.. كانت زحمة الحياة تنفسيها ولكن القلب لم يتغير.. كانت تعيش على أمل اللقاء حتى ولو لم يتحقق فالأمل موجود.. وبعدما تحقق الأمل وأصبح اللقاء حقيقة معاشة.. كان لابد لها أن تبحث عن مصدر آخر لإحياء الشعور نحوه.. فلم يكن سوى تجسيد البعاد ولو عن طريق الحلم.. وهذا ما فسره سعيد مهران بمنطق الواقع.. ذلك الواقع الذي يختلف تماماً مع ذلك الحلم.. فهو يؤكد لها أن الحقيقة عكس ما تصورت وأنه لن يكون بعيداً ولن يغادر ذلك المكان.. ولكن عليها هي أن تحقق ذلك الحلم وأن تسعى إلى ذلك البعاد وهو يقصد عامداً موعدها الليلي مع ضيف جديد حتى توفر لها ما يعيشا عليه سواء طعام أو شراب.. الخ..

كان عليها هي أن تعمل.. وهذا العمل لا يخفى عليه.. ثم مكان ذلك العمل غير معلوم فالطرف الآخر هو الذي يحدد المكان أما الزمان فهو بليل ولا تغيير.. الزمان باق ومعلوم.. أما المكان فهو الذي يتغير وفق تحديد الرجل وهذا ما قصده سعيد مهران بقوله ستذهبين بعيداً لأنه لا يدري أي مكان يمكن أن تذهب.. ثم إن عليه هو الانتظار.

إن المحب دوماً يكون غفوراً ناسياً هنات أو إساءات الحبيب وكانت نور هذا المحب.. فقد غفرت ما تأخر من آلام الماضي ولم تعش إلا لحاضرها.. لم تكن تنتظر من الحياة شيئاً بعدما وهبتها الحياة ذلك الرجل الذي جاء بقدميه لاجئاً متوسلاً.. ولكن لا بأس مادام سيستمر معها دون فراق وليذهب المجهول إلى الجحيم.. وعليها أن تسارع مبكرة حتى تحقق مقصدها وتعود مبكرة لكي تقتنص من الليل بعضه..

تغادر نور المسكن لكي يصبح سعيد وحيداً في انتظار المدد ولا يدري كم من

الوقت يمكن أن يحتمل حتى تعود.. ولابد أن ينتظر رغماً عنه فلا بديل عن ذلك.. وهي بدورها سوف تزوده بما يريد.. وتخرج نور.. وتعود نور وما بين الخروج والعودة رحلة شقاء تهب فيها رجلاً ما لا تعرفه ولكن سوف تلتقي به وتعرفه سواء حقيقة أم وهما.. وليس في الأمر أهمية فالتعارف يمكن أن يستمر لأيام أو أكثر ويمكن أن ينتهي مع نهاية الغرض الذي من أجله تعارفا.. تهب نفسها.. وليس ذاتها.. تهب الجسد وليس الروح.. تهب اللذة بعيداً عن القلب فهذا كله كان رأس مالها وبضاعتها المكشوفة التي يمكن للرجل أن يتلمسها.. أما الخفي منها فهو رجل واحد سعيد مهران الذي لم يكن يستحق ذلك.. ولكنها في النهاية الحب الذي لا يفرق بين الأبيض والأسود..

مع العودة كان سعيد مهران قد قطع رحلة طويلة استغرقت سنين مع الخيال استعرض خلالها شطراً كبيراً من حياته وفي زحمتها كانت نور تحتل مشهداً هامشياً وسط الأحداث المثيرة.. فلم يكن يحبها.. ولم يكن أيضاً مستعداً لمبادلتها ذلك الحب.. ولكنه يتأكد تماماً وهذا لا يدع مجالاً للشك في أنها تحبه لدرجة العبادة وهذا ما جعله يستغل موقفها منه لكي ينتزع ما يريد كماً وكيفاً..

ومع العودة.. وبما حصلت عليه مقابل العطاء المحرم فقد أحضرت كل ما استطاعت من ملذات المأكل والمشرب وجرائد اليوم.. لكي تعطي مرة أخرى.. عطاء من عطاء لرجل كان غايتها اقتناص الرضا منه عسى أن يتحول القلب الجاف إلى قطعة لحم تدب فيها الحياة لكي يصلها الشعور وربما يتبادل..

ولم يكن رد الفعل أمام كل ما فعلت نور سوى كلمات ظن أنها تكفي هذا الموقف وهو لا يشعر أن نور تريد المزيد.. ويكون لها المزيد في حواره الذي يطول فمن قوله الموجه إليها والذي يرضي غرورها:

- أنت امرأة ولا كل النساء..

- صدقيني أنا سعيد بك..

- رقة قلبك لا يمكن أن تقاوم..

كل هذا الحوار يوجهه سعيد مهران إلى نور.. ربما مقابل ما تعطي من كل شيء.. وتتساءل نور في شيء من التدارك:

- ألم أكن كذلك في الزمان الأول؟

- كنت وقتذاك بلا قلب (٨٥،٨٦)

لقد كانت نور الإنسانة مختلفة تماماً عن نور ابنة الليل التي لم يكن حوارها إلا استهلاكا للزمن القصير الذي تنفقه مع الذي يسدد الثمن في النهاية.. أما في صحبة ذلك الرجل سعيد فالأمر كان مختلفاً.. فقد جمعهما مكان ولحظة زمن بعيداً عن البشر.. كان عطاؤها غير محدود وكلماتها مليئة بالتحفظ.. فهي مازالت في حلم رغم أنها تدرك أن ما يحدث حقيقة واقعة ولكنها الحقيقة التي تشابه الخيال في تحقيقها..

وإذا كان سعيد مهران من ناحية يجود عليها بتلك الكلمات المتكررة والتي تنم عن مجاملاتها بعيداً عن أغوار الحب.. فإن نور كانت تعد ذلك كثيراً بمقياس الزمان الماضي.. إن كلماته كانت أشبه برد تحية ليس بمثلها ولكن بما تساويها على الأقل.. فهي رغم جفافه المشوب بالغلظة معها في مواقف ماضية كثيرة قد رحبت به دون أية مقدمات.. آوته في بيتها وهي تعلم أنه ما جاء إلا هارباً من شيء.. لم تسأله عن هذا الشيء.. قدمت له كل ما تملك بشيء من السعادة والرضا.. مقابل ماذا؟! لم يكن شيء قدم منه لها لكي يكون ما قدمته هي نوعاً من المقابلة..

وعلى ذلك خرجت تلك الكلمات من سعيد لا لشيء إلا لدفع الحساب بهذه الطريقة ولم تكن نور تطمع في أكثر أو أغلى من ذلك.. ولكن الإنسان عادة لا يقنع بل يطلب المزيد.. أو يسأل عن ذلك العطاء وليد الساعة أين كان من الزمن الماضي..؟!

لقد رحبت نور بكلمات سعيد.. ولكنها تسأل عن ذلك الكنز الذي تلقته لتوها.. أين كان في الزمان الأول وهي لم تتغير بعد وهو مصدر ذلك الكنز كان كما هو الآن.. أي أن المصدرين لم يتغيرا.. ولكن الذي طرأ هو تلك المعاملة فما سبب ذلك؟!

لقد تجاهلت نور حقيقة أو أنها لم تفكر أصلاً فيها.. وهي أن سعيد في الماضي لم يكن يحفل بها لأكثر من سبب.. منها انشغاله ونجاحه بمشروعاته التي كانت تدر عليه دخلاً كبيراً من سرقاته المتكررة الناجحة.. ولم تكن نور في ذلك الوقت تكفيه لأنها تريد إنساناً ملكاً لها.. تهبه حبها ويكون لها خالصاً مخلصاً.. ثم إن سعيد كما ذكرنا ارتبط قلبه بأخرى وهبها كل الحب حتى لم يتبق منه شيئاً لكي يخص به غيرها سواء نور أو أية امرأة أخرى.

لم تكن نور تنتظر من سعيد أن يكون بالنسبة لها زبوناً.. بل كانت تريده إلى الأبد.. وهي الآن رغم أنها تتجاهل ذلك أم لم تصل بفكرها أصلاً إليه.. فهي تريد أن يكون الموقف خالياً من أية رواسب من الماضي ويكون العقاب رداً على تصريحاته.. عتاباً يميل إلى الدلال الذي لا يغضب الطرف الآخر..

وإذا كان سعيد مهران صادقاً في ما قال.. فهو التغيير الذي طرأ عليه رغما عنه فالأسباب التي أدت إلى عدم تجاوبه مع نور في الماضي قد قبرت وتعفنت ولم يكن له أن يحتمل لها رائحة.. إذن لا أمل مطلباً في العودة مرة ثانية.. ثم هروبه من نتيجة الجريمة التي ارتكبها والذي لم يكن له أن يجد مأوى آمناً سوى عندها.. يمكن مع كل ذلك أن يجد قلباً مفتوحاً لتلك المخلوقة التي رأى فيها العكس تماماً من زوجته التي عرفها مستقيمة.. ويمكن أيضاً أن يكون ذلك الحوار مجاملة لا أكثر حتى يعطيها الأمل الذي يستمر معه العطاء من جانبها طوال الفترة الذي سوف يعيشها في هذا البيت وربما يتغير منه القلب في لحظة..

ورغم كل هذه التعارضات لم تكن نور تنتظر منه أكثر مما قال.. كان في الماضي بلا قلب.. من ناحيتها على الأقل.. وهذا ما لم تفطن إليه نور أيضاً.. فإن القلب كان قابعاً داخله وهو الذي اختار نبوية.. ولكن يمكن أن يكون صادقاً إذا كان الشعور من ناحيتها هي..

وهذه الجملة كانت باعثة بالأمل في أن يكون التغيير الإيجابي هو البديل لقد كان بلا قلب وقد أصبح إذن القلب موجوداً.. وكان الماضي له متطلباته وقد ذهب بلا عودة أو هكذا رغبت نور هذا الاحتمال.. أما الحاضر وهو اللحظة التي تعيشها

فالمتغيرات التي طرأت يمكن أن تصحح وضعاً مقلوبا آن له أن يأخذ مساره الطبيعي.. وذلك كمنطقها.. ومن هذه النتيجة كان لنور أمل لكي تحقق أمنيتها التي عاشتها ومازالت تحيا داخلها.

كل هذه التخيلات كانت واردة في ذهنها.. ولكنها استسلمت للواقع الذي أرادت أن تعيشه مع سعيد وقد جمعتهما صدفة لن تتكرر ولذلك فقد تشبثت بخيوط هذه اللحظة علها تنسج منها الاستمرارية.

ولذلك فقد حاورته لكي تصل معه على مقصده لكي يطمئن قلبها.. حتى يفاجأها برغبته في الحصول على ملابس ضابط شرطة.. إن هذا المطلب شكل لها عقبة راح فكرها يحلله بسرعة وهي أعلم بمن يكون سعيد مهران.. فقد سبق أن خطط ونفذ بالأمس القريب سرقة الشاب الذي كان بصحبتها ولم تعترض وما كان لها أن تعترض على القانون.. وبهذا الطلب يكون استمرار المخطط الذي لم تعرف بمنتهاه.. وهي في نفس الوقت تعرف مدى خطورته.. إنه يعمل ضد الحكومة وهو لم يكن أبداً نداً لها.. إذن فالنتيجة عواقبها وخيمة وهو ما لا ترضاه أبداً بعدما أصبح بين يديها.. فهي تريد أن تنعم بأيام قادمة تريد لها ألا تنتهي ولو كلفها ذلك حياتها..

ويكون محصلة ذلك التفكير وتلك الهواجس أن تعزف له بصدق ما يدور داخلها بل بمطلبها في الحياة..

- ألا تفهم أني لا أريد أن أفقدك مرة أخرى؟ (٨٦)

إن ذلك الاعتراف إنما هو كائن معاش يشكل في حياتها تشبث بفرصة منحها إياها القدر الذي لم يحقق لها المراد في سنوات خلت وبعد طول انتظار.. وعلى غير موعد يتحقق.. فهل لها أن تدعه يتبخر بسهولة هكذا دون أن تحاول من ناحيتها أن توقف مسيرته التي لن تكون نتيجتها سوى فقده.. لقد كانت المسافة بينهما في الماضي واضحة.. والتلاقي شبه معدوم ورغم ذلك كان الحب من جانبها حياً ينبض بالحرارة والآن تلاشت هذه المسافة وأصبح القرب هو البديل.. لذلك فقد ترددت قبل أن تجيبه إلى طلبه..

لقد أرادت نور للحوار أن يستمر حتى ترى انعكاس ذلك عليه.. وحتى تقترب منه أكثر.. وكان من الذكاء أن يلبي لها ما أرادت حتى يطمئن قلبها.. ثم يحقق من خلالها كل ما يريد.. عرف أنها تحبه.. ولكنه لم يكن قد وصل إلى درجة هذا الحب.. ولم تعترف له من قبل بذلك لأن الحوار لم يصل بهما إلى هذا الحد.. أما الآن فهو يسمع لها.. وهي تلقي بأسئلتها التي ترتاح لإجابتها من ناحيته حتى تلقي بأعمق شعورها نحوه في قولها ردا على سؤاله عن الموت ومدى خوفها من هذا اللفظ:

- وحتى هذا أنساه عندما يجمعني الزمان بمن أحب. (٨٧)

لم تكن اعترافات نور سوى إحساسات صادقة نابعة من قلب نظيف يحمله جسد قذر على العكس تماماً من نبوية عليش التي كان لها الجسد النظيف الذي يحوي داخله قلب نتن فهل القيمة هنا في الجسد الذي يمكن أن ينظفه مكيالين من الماء أم القلب الذي لا يكفيه نهر جارف لكي يطهره من دنسه.. هذه هي القضية.. لقد كان لنور قلب صادق وفيّ جعلها تعترف بصدق أنها تنسى الموت في اللحظة التي تكون على مقربة بمن تحب.. وسعيد مهران يعلم تماماً أنها تحبه.. وهو يفجر أمامها كلمة الموت لكي يرى صدى هذا اللفظ عليها.. فهو في قرارة نفسه يعلم أنه مقدم على تخطيط يمكن أن تكون حياته ثمناً له.. ويمكن أن يخرج منه دون أن يلحقه خطر.. ولكن النتيجتين واردتين في خاطره.. ويكون رد الفعل من قبل نور ما صرحت به.. فإلى هذا القدر يكون حبها..

يا له من شعور يندر أن يتكرر مع غيرها ممن يتحلين بالعفة.

إن مطلب سعيد للحصول على قماش لبدلة ضابط جعل نور تخاف من النتيجة التي يمكن أن تكون في غير هواها.. ورغم ذلك تحقق له ذلك المطلب لسبب واحد وهو إرضاءه بأية صورة.. وتحضر له القماش بعد أن تلقى في سبيل ذلك كل الإهانات..

فهي قبل أن ينزل سعيد عليها ضيفاً كانت تكتفي بأن تصاحب واحداً فقط يوفر لها مطلبها بقية الليلة وطول النهار.. لكي تكرر نشاطها الأمسي في اليوم ثم

الغد.. وهكذا حياتها.. ولكن الآن وقد أصبح البيت مشغولاً بآخر له طلبات مثلها تماماً ويمكن أكثر.. فإن عليها أن تضاعف نشاطها ولكن كيف.. ويكون لها ذلك.. فلم تكتف بواحد.. بل أصبح الواحد جماعة ومن الشباب.. ثم لا تصل معهم إلى مقابل.. ليس هذا فقط.. بل يكون المقابل اعتداء بالضرب المبرح.. ومع ذلك تحضر ما طلبه سعيد.. لقد كانت التضحية من قبلها غير محدودة لكي تحتفظ به دون أن يشعر بنقص يطلبه بعيداً عنها.. أرادته معها.. قريباً منها.. ولذلك أرادت أن تضحي بكل شيء في سبيل بقائه ودون أن تفقده كما اعترفت بذلك..

لقد عاشت نور معه ليلة أو أكثر واطمئن قلبها.. وكم تمنت أن تدوم الحياة على ذلك.. ولذلك فهي تودعه مرتدياً زي الضابط في خوف وتوسل.. فاليوم مغايراً عن الأمس الذي كان اللقاء يجمعهما ثم يفترقا سريعاً دون أن تحصل منه على كلمة حب واحدة تثلج صدرها الملتهب.. كانت تعطي دون أن تلقى مقابلاً.. رغم أن ذلك العطاء لم يكن أيضاً يصل لأن الطرف الثاني لم يكن متجاوباً.. أو كانت المسافة بعيدة جداً بينهما رغم قربهما.. أما الآن وقد تم اللقاء عن قرب إلى درجة التلاحم.. ورشفت من رحيق الحب ما أخمد لهيب الشوق وكأنما اعتادت هذا العطاء رغم أنها تبيعه للآخرين دون أن يصل إليها منهم ذرة.. إلا أنها قد ارتضت ما أخذته منه.. ولا تريد أن ينقطع ذلك النبع.. لذلك فهي تقدم إليه الرجاء أن يتحلى بالحكمة في تصرفاته حتى يعود لها مرة ثانية حتى يمكن لها أن تعيش بلا حرمان فهي تقول له:

- كن حكيما.. لم يعد في وسعي أن أفقدك.. (٩٦)

إن نور في هذا الحوار كانت في قمة الصدق مع سعيد مهران ومع نفسها أيضا وهي هنا تعترف ضمنا في تصريحها له.. أنها قد تعودت عليه في المدة القصيرة التي تعاملت معه عن قرب دون أن يوجد حاجز من أي نوع يفصل بينهما حتى أنها أدمنت الحياة الجديدة وجرت لذتها في دمائها ومن الصعب أن تنقي دمها من هذه اللذة.. إنها تطلب المزيد والاستمرار حتى ترى الدنيا من خلالها.. ولذلك فهي تتوسل إليه أن يكون حكيما.. وهذا الاعتراف إنما يعكس داخله أيضا بجانب

عدم مقدرتها من أن تفقده.. أنها فقدته من قبل مرات كثيرة كان اللقاء يجمعهما عن قرب والقلب منه بعيد جداً عنها..

وسرعان ما يزول اللقاء وقد تكرر ذلك كثيراً ولكن دون أمل يرجى من التواصل ولكن اللحظة الراهنة تختلف كيفاً وكماً عن لقاءات الماضي.. إذن فهي تود فعلاً أن يبقى معها حتى لو كانت حياتها ثمنا لهذا..

وهذا الموقف إن دل على شيء فإنما يدل على تكثيف شعورها نحو هذا الرجل بعدما وجدت إيجابية مظهره نحوها مما شجعها على إبراز مكنون النفس منها.. وتعيش نور على الأمل الجديد الذي لا تأمن استمراره وكأن الدنيا تقف منها موقف العدو..

لم تكن نور ترضى بسعيد مهران بديلاً.. لأن الحب وحده هو الذي قرر وأصدر الحكم.. فهي في موقف آخر حينما تعلم من الجرائد عن جريمة قتل ارتكبت بيد سعيد يقع جدار الأمل وتنسحب الروح منها حيث انكشف أمره أو سينكشف حتما وهو ما لم تكن ترضاه.. حل اليأس في نفسها كانت أضعف من أن تفكر في شيء أو تتخذ قراراً من أي نوع.. ولكن سعيد يهون لها الأمور حتى يصل بها إلى الشروع في ترك المكان نهائياً ولكن بعد فترة.. لقد كانت نور ومازالت تهبه القلب خالصاً ولا تريد من هذه الحياة سواه ولا شيء بعد ذلك.. وهي إن كانت تناشده الهرب في اللحظة دون انتظار شيء.. فهي تصر على استمرار القرب منه دون أن تخشى خطراً فهي تتمسك بحق أصبح في يدها بعدما عاشت سنوات في الماضي تحلم به.. إن عاطفة الحب عند نور كانت قوية لا تعادلها قوة مهما كانت حتى قوة الموت كانت أدنى من قوة الحب داخلها..

لم تكن تفكر إلا في ذلك الرجل الذي امتلكته أو ظنت كذلك.. لقد عاشرت المئات من الرجال والشباب عن قرب ولكنها لم تشعر بواحد منهم.. وأحبت سعيد عن بعد وهو يعيش داخلها دوما.. والآن وقد حقق الزمان أمنيتها ترى المستقبل يتهددها في أعز ما تملك.. حبها.. وسعيد.. ولم يكن ذلك إلا نتيجة إصرار الرجل على الانتقام من كل شيء.. الأمر الذي رفضته نور.. فهي تريد أن تحيا بقية عمرها بجانبه في طمأنينة وسلام لكي تحس نشوة اللقيا التي كان مقابلها سنوات طويلة من الهجر والبعاد ولذلك

فهي تحاول قصارى جهدها أن تثنيه عما يدور في داخله.. ولكن تتكرر المحاولة لارتكاب جريمة أخرى ويزداد رصيده لدى رجال الشرطة الذين أصبحوا يتتبعون خطاه وأخباره وأصبح هو بالنسبة لهم الهدف المقصود.

وتستمر نور في مزاولة نشاطها الذي تعيش من دخله.. بل ويعيش سعيد أيضاً وتحقق له كل مطلب من ذلك العائد الذي كانت تحصل عليه في آخر كل ليلة من مكان مختلف عن ذي قبل ومن إنسان جديد.. فروّادها غير دائمين وكانت تبحث عنهم بنفسها وتسمع منهم ما يدور على الساحة لتنقله إلى سعيد بدورها.. وكم عاشت لحظات خوف من المستقبل حتى لم تجد سوى الإسراف في الشراب حتى تتجنب هذا الشعور القاتل.. ومع ذلك لم يكن الخمر بمؤثر جيد.. فالحب داخلها كان أقوى من أي خمر.. كان الخوف من الغد يطاردها.. وهي ترى سعيد يملأ عليها دنياها ولا تريد سواه فهل تتركه وشأنه يضيع منها في لحظة كما وجدته في لحظة.. إن ذلك الإحساس كان يهدد كل دقيقة من عمرها.. ولذلك فهي ترجو وتكرر الرجاء في الهرب بعيداً عن ذلك المكان.. البلاد إن أمكن.. تريد أن تعيش معه بعيداً عن الخوف.. وقد لحظت تغيراً طفيفاً نحوها.. إلى الأحسن.. أي أن الظروف العاطفية في جانبها.. فهل يمكن تحت أي ظرف آخر أن تفقد ذلك كان صعباً عليها أن تجد معادلاً منطقياً تغير به تلك الهواجس ما لم يوافق سعيد على رأيها.. وهو بدوره لم يكن يرى أن اللحظة مناسبة للهرب فقد كان في نفسه شيء آخر يريد تحقيقه.. ربما أن يطمئن أن رءوف علوان قد قتل وأن يديه لم تخطئ هذه المرة.. وربما ينتظر اللحظة التي تهدأ فيها عيون رجال الشرطة حتى يأمن الهرب دون التعرض للخطر وهو هذه المرة لن يكون وحده.. بل سوف تتبعه نور وهو يخاف عليها أو هكذا سولت إليه نفسه..

لقد كانت نور بالنسبة إليه صمام أمان يحتمي بوجودها.. وهي بالمقارنة لغيرها سواء نبوية أو ما دونها كانت على القمة.. فقد أحبته في حين لفظته الأخريات بما فيهن زوجته.. آوته وحافظت عليه في حين انسلخت منه زوجته في لحظة ضيق وجاوزت ذلك بزواجها من صبي تابع له.. وهي أي نور مازالت تهبه الحب والتضحية فهل بعد ذلك يمكن أن يبخل عليها بكلمات مشوبة بشعور غامض.. بل إنها تستحق أكثر من ذلك بكثير ولكنه في الوقت الراهن لا يمكن من

أمره شيء سوى بعض كلمات ربما تخرج صادقة ولكنها لا تصل إليها حيث إن تصرفاته لم تكن تؤيد كلماته.. فهو يهوي إلى الهلاك بسهولة ترفضها هي بدورها.. لقد رضيت أن يستمر الوضع ويتجمد.. مادام هو بجانبها وليبحثا معاً عن مكان آمن يقضون بقية العمل ويكفيها أن تهب الحب عن قرب وأن تأخذ مقابله استجابة نشوة تحيي فيها أمل حياة تود أن تستمر..

ورغم ذلك فهي دوماً تبحث عن مصدر الدخل في أي مكان.. في عوامة أو شقة أو الشارع نفسه والمقابر لم تكن غريبة عليها.. فهي تبيع الحرام المحرم ولذلك كانت الأماكن المغلقة أو المستترة هي هدفها.. لتعود بعد ذلك محملة باحتياجاته أولاً.. وتزيد على ذلك بنقل الأقاويل التي تسمعها في الشارع أو من أفواه روادها والتي تتعلق باختياره.. كانت ترى صدى ذلك خطورة قاتلة بالنسبة إليها ينعكس ذلك عليه في هدوء لم يكن يروقها.. فهي تحترق خوفاً عليه وهو هادئ النفس يملأه الأمل في كل شيء.. في الانتقام ممن يريد.. ثم في النجاة بالهرب بعيداً.. حتى أن ذلك يحدث صداماً حوارياً بينهما:

- أنا أحافظ عليك.. أما أنت فلا تحافظ على نفسك.. وأنت لا تحبني ولكنك أعز عليّ من النفس والحياة.. وطول عمري لم أعرف السعادة إلا بين يديك.. ولكنك تفضل الهلاك على حبي..

- ستجدينني عند وعدي.. سنهرب ونعيش معاً إلى الأبد. (١١٧)

إن الحب الذي يسيطر على نور كان أقوى من كل شيء فهي التي لعبت بقلوب وعقول الكثيرين حتى أصبح ذلك بالنسبة لها مجرد حرفة تعيش من عائدها.. أما سعيد مهران فكان وحده عالماً مكتملاً.. وهبته حبها دون أن تنعم بالمقابل.. المقابل الذي يعد من جنس النوع وليس إشباع رغبة أو قرب معاشرة.. ورغم ذلك فهي قد قنعت بالوضع الآخر.. ربما يتولد الحب من المعاشرة أو استمرار القرب.. فهي خطوة وافقت عليها بل وتمسكت بها وتمنت أن تدوم.. فهي تعترف أمامه بعد أن سيطر عليها الخوف واليأس من عدوله عن الانتقام من خيانة زوجته.. والتي أولتها إلى استمرارية حبه لها.. فهو إن لم يكن مازال يحبها.. فلابد أن ينساها وقد تغير الوضع ولكن سعيد مازال يصر على الانتقام.. إذن فهو مازال يحبها الأمر الذي كان يؤرقها.. فهي في حين أنها تحافظ عليه.. إلا أنه يهمل نفسه

ويلقي بها في التهلكة.. ثم تعترف له بشعورها الصادق بحقها له دون انعكاس هذا الحب من طرفه هو.. ومع ذلك فهي راضية.. ومع ذلك فهو بالنسبة لها الحياة بمعنى الكلمة وما تحملها من شعور.. وربما يزيد في الإحساس من الحياة بل ومن النفس.. لقد كان حبها أقوى من كل شيء.. من الحياة.. من النفس.. وما أسمى هذا الحب الذي لا يقهره شيء.. ثم تختم اعترافاتها بإقرار معرفة السعادة في قربه.. حيث لم تذق لها طعماً قبل ذلك.. والقرب هنا لم تعرفه إلا منذ أيام قليلة.. رغم أنها عرفته من سنين مضت ولكن عن بعد.. والسعادة لم تعرفها إلا مقرونة بالقرب.. الأمر الذي أرادت له أن يستمر حتى وإن لم يكن الحب متبادلاً.. فيكفيها القرب الذي يتولد منه السعادة.. ورغم ذلك فهو لا يضمن لها هذا القرب بتصرفاته التي لا تنتهي إلا بنهايته.. ومعنى ذلك نهايتها هي..

إن اعتراف نور بمكنون نفسها كان صادقاً نابعاً من قلب مغلف بالوفاء لمن أحبت.. ومع ذلك فلم يكن سعيد مهران بجاحد.. بل ربما تغيرت إحساساته بعد هذا الكم الهائل من العطاء الخالص المنزه من أية أغراض ويعترف بدوره عن قناعة بأنه لن يتخلى عنها وسيكون عند وعده الذي قطعه على نفسه وهو الهرب معها والاستمرار بقربها إلى النهاية. وكان ذلك كافياً بل ويزيد بالنسبة لنور ولكن بشرط واحد هو أن يضمن لها الرجل التنفيذ وهي التي لم تكن تأمن ثورة الغضب النابعة من داخله والتي تتهدد حياته وبالتالي حياتها..

إن نور تريد أن تعيش على الأمل.. على الكلمة التي ألقى بها سعيد وهو يتعهد أمامها بالوفاء بالوعد.. ولكن الواقع يخالف الوعد.. فهي حينما تعلم من الناس ومن الجرائد بارتكاب جريمة قتل على يد سعيد مهران.. وتحول الرصاصة من قلب رءوف علوان وهو المقصود إلى رجل آخر بواب.. فقير.. مسالم بريء وتنقلب رجال الصحافة والشرطة على سعيد.. تنقلب في لحظة إلى النقيض فهي قد رضيت منه وعداً وعاشت عليه وهي تنتظر اللحظات المتبقية لكي تحقق الحياة التي تتمناها بعد الهرب.. وهاهو الرجل يرتكب جريمة قتل أخرى لكي يحاصر من قبل رجال الشرطة ولكي يضيق الخناق عليه وعليها في آن واحد.. لقد ربطت مصيرها بل حياتها بوجوده.. وهاهو ذلك الوجود مهدداً بالفناء.. إذن فما معنى البقاء بالنسبة لها.. لا معنى له.. ولكن ما العمل.. ماذا تستطيع هي أن تفعل.. إنها

امرأة أضعف من أن تنهي مصيرها بقرار منها تكون في نفس الوقت أداة التنفيذ.. لقد وصلت نور إلى قمة الانهيار وهي تواجه وتتكر عليه فعلته التي هدمت كيانها وأملها ورغبتها في البقاء وهي التي ترى النهاية قريبة..

إن نور بعد أن تيقنت من تلك الجريمة وبين الرجل الذي أحبته إلى درجة العبادة والجنون.. وبعد أن ضاع أملها في استمرارية البقاء بقربه بعد الهرب.. وبعد أن تأكدت أن ذلك الهرب أصبح شبه مستحيلاً.. لا تكاد تصدق أن سعيد مهران الذي يعيش معها في مكان واحد.. هو نفس الشخص الذي أحبته ووهبته حياتها.. وهي تعبر عن ذلك بحوارها معه والذي وصل إلى قمة اليأس:

– أنت أقسى مما أتصور، لا أفهمك.. ولكن بالله اقتلني رحمة بي. (١٢١)

لقد عرفت نور سعيد مهران.. عرفت فيه القسوة وغلظة القلب الذي لم يتحرك نحوها برغم ما يكنه قلبها نحوه علناً وليس في الخفاء.. ومع ذلك فقد وضعت لتلك القسوة نسبة مهما زادت فهي محتملة ولم تؤثر على حبها نحوه ومع تلك القسوة لم يكن الرجل بالنسبة إليها لغزا.. بل كانت تحاول أن تقترب منه وأن تكشف بعضاً من خبايا نفسه ولم تيأس من ذلك حتى أنها أقنعت نفسها بأنه قريباً جداً منها.. ولكن في اللحظة الأخيرة تستسلم للواقع الذي جعلها تعترف بقسوته التي لم تكن تتصورها.. ثم إقرارها بأنها إلى هذه اللحظة لم تفهمه جيداً.. وعلى ذلك فإن النتيجة الواقعية هي نهايتها التي لا شك فيها.. ولكن كيف تصل إلى تلك النقطة.. وهي أضعف من أن تحقق ذلك.. إذن فيكن هو أداة التنفيذ ولن تكون المهمة بصعبة بالنسبة لمن على شاكلته.. فالقتل أصبح لعبة مفضلة.. والقتل أيضاً وسيلة لنهايتها التي ستحقق لها الراحة الأبدية طالما أن القرب من الرجل أصبح مستحيلاً.. إذن فالنهاية هي الأمل.. ولتكن بيده هو.. ولن يعجز عن التنفيذ.. هكذا تصل نور إلى قرار أو رغبة بعد أن وصل بها الأمر إلى نقطة لم تتمكن من الاستمرار بعدها.. لأن النهاية هي ما بعد هذه النقطة ولذلك فهي تطلبها بلسانها منه..

وإذا كانت نور قد وصلت بشعورها إلى نهاية عاجزة عن أن ترى بعدها ثمة أمل يمكن أن يفتح لها باب نجاة.. فإن سعيد كان من السهل أن يهون عليها تلك النظرة التشاؤمية ويقنعها بأن الأمل مازال وجوده قائماً..

وإذا كانت نور قد سلمت لقوله.. فإن حبها له هو الذي تجاوب مع تحليله للموقف ولاسيما أن النتيجة التي خرج بها من ذلك الحوار أحيت الأمل في إمكانية التواصل من جديد بعد أن يدبر هو وسيلة الهرب ولكن ليس الآن حتى تهدأ عيون الشرطة ويجد منفذاً بعيداً عن الخطر.. ليمتص منها الغضب والخوف بمجرد لمسها والتقرب إليها..

إن الحب الذي سيطر على كيان نور وملك منها العاطفة التي قهرت منها العقل جعلها تصل إلى ذروة اليأس والخوف ليس على نفسها ولكن على من تحب والذي أصبح بالنسبة إليها مصدر عطاء وسعادة وأمل.. ثم تهدأ هذه الثورة سريعاً وأيضاً من داخل نفس العاطفة التي تجد تجاوبا من الطرف الآخر وتصدق منه أي وعود متناسية كل قسوة أو لحظة خطر..

فهي تغفر له كل شيء حتى لو كان المقابل حياتها وسعادتها مادام الحب هو الذي يحكم المواقف.. لقد كانت حياتها بعد أن عاشت معه في مكان واحد أشبه ببحر غير مستقر تتحكم فيه الأمواج التي تسيطر عليها الرياح فحيناً يكون هادئاً وأحياناً كثيرة تكسر هدوءه تلك الرياح والأمواج.. وكان سعيد بالنسبة إليها كالبحر تماماً.. فمنه تستمد سعادتها وبسببه أيضاً تثور ثائرتها ويتولد الخوف ثم تعود من خلاله أيضاً سيرتها الأولى وهكذا.. لقد عاشت نور من قبل حياة متقلبة ورغم ذلك لم يكن يروعها شيء يذكر.. وظلت نور صادقة في حبها الذي استطاع بقوته وجبروته أن يخترق القلب الجاف ويؤثر عليه في لحظة شعر سعيد أن نور قد تلاشت كشمعة بعدما أضاءت أيامه القليلة الأخيرة.. خرجت لم تعد ولم يعرف عنها شيء ليصل بنفسه إلى النهاية التي لم يعد بعدها شيء..

وهكذا عاشت نور قصة حب من طرف واحد.. حب ملؤه الصدق والتضحية من امرأة ساقطة ولكنها صادقة في حبها مظهرها قبيح وجوهرها جميل.. وهذه سمات المرأة التي لعبت دوراً رئيسياً في أدب نجيب محفوظ واختيارنا لثلاث شخصيات جسدت من خلالها دور المومس التي لم تختر طريقها إلا تحت ضغط الفقر والحاجة.

المراجع

١ - نجيب محفوظ.. حياته وأدبه، نبيل فرج، هيئة الكتاب، القاهرة، ١٩٨٦.

٢ - العالم الروائي عند نجيب محفوظ، إبراهيم فتحي، هيئة الكتاب، القاهرة، ١٩٨٨.

٣ - زقاق المدق، نجيب محفوظ، دار مصر للطباعة، القاهرة.

٤ - بداية ونهاية، نجيب محفوظ، دار مصر للطباعة، القاهرة.

٥ - اللص والكلاب، نجيب محفوظ، دار مصر للطباعة، القاهرة.

٦ - نجيب محفوظ يتذكر، جمال الغيطاني، دار المسيرة، بيروت، ١٩٨٠.

المحتويات

٢٠٠٦/٩/٦

٢٠٠٦



الطبعة الأولى ٢٠٠٦